الباب الثاني

الجوانب المؤثرة في وسائل الإعلام

الفصل الأول

أهم وسائل الإعلام عبر التاريخ

نظراً لطول الفترة الخاضعة للدراسة ، فالأفضل تقسيمها إلى عهود ، عسى أن نبحث ـ ولو بشكل سريع ـ عن المسيرة التاريخية للإعلام .

أ ـ الإعلام في المجتمع العربي القديم :

كان العرب مقسومين إلى قسمين (بدو ، حَضَر) ، والبدو سكنوا الخيام ، واتخذوا نادياً يسمرون فيه ، ويأتي الضيوف إليه ، وكان سيّد القبيلة يفتخر بناديه هذا ، ولما استقرّ بعضهم ألفوا الحصون والأبراج .

وكانت لهم مجالس يلتقي فيها الكبار مع الصغار ، ويتمّ فيها طرح القضايا المهمّة ، وأما الأعياد فتعدّ بالنسبة لهم وسيلة إعلامية ، كما هو شأن موسم الحج .

ويدخل في ذلك الرحلات إلى بلاد الشام وغيرها ، ويدخل في ذلك دور الندوة ونحو ذلك . إلاّ أن الشيء المهم في أعمارهم هو انتشار الأسواق ، والتي كانوا يستخدمونها للبيع والشراء ، بينما يخصصون بعضها للشعر والمبارزات الشعرية ، ومن الأمثلة على تلك الأسواق : سوق عكاظ ، وسوق صحار ، وسوق هجر ، وسوق دومة الجندل ، وسوق مجنة ، وسوق حضرموت ، وما إلى هنالك[1] .

---

(١) يُنظر كتاب « أسواق العرب » لسعيد الأفغاني ، فهو بحث ممتع حول الأسواق العربية ، ومهماتها ، وما يدور فيها .

وكان كبار الشعراء وكبار الخطباء يقفون في تلك الأسواق ، لتلقي قصائدَ وخطباً قوية ، ومن الأمثلة على ذلك :

خطبة ألقاها (أكثم) أمام كسرى أنو شروان ، جاء في أواخرها ما يلي :

إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمّها نفعاً ، وخير الأزمنة أخصها ، وأحسن الخطباء أصدقها ، الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشرّ لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركبٌ وطيء ، آفة الرأي الهوى ، والضعف مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة ، إصلاح فساد الرعيّة خير من إصلاح فساد الراعي ، من فسدت بطانته كان كالغاصّ بالماء ، شرّ البلاد بلادٌ لا أمير فيها ، وشرّ الملوك من خافه البريء ، أفضل الأولاد البررة ، خير الأعوان من لم يُراءِ بالنصيحة ، أحق الجند بالنصر من حسنت سريرته ، يكفيك من الزاد ما بلغك المحل ، البلاغة الإيجاز ، من شَرَدَ نفر ، ومن تراحم تآلف .

أما الشعر فهو ديوان العرب ، سجّلوا من خلاله علمهم وحِكَمَهم ، وتفاخروا به إلى حدّ كبير ، حيث خرج منهم شعراء المراثي : كالخنساء وأعشى باهلة بن الحارث .

وشعراء القرى : كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك في المدينة ، وابن الزبعرى ، وأبي طالب في مكة ، وأبي الصلت وغيلان في الطائف .

وبرز منهم شعراء المعلقات السبع ، وهم : امرؤ القيس ، وطرفة بن العبد ، وزهير بن أبي سلمى ، ولبيد بن ربيعة ، وعنترة بن شداد ، والحارث بن حِلِّزة ، وعمرو بن كلثوم[1] .

---

(١) للتوسّع يراجع : سيرة ابن هشام ١/ ٤٧ـ١٣٦ ، العمدة لابن رشيق : ٢/ ١٩٨ ، بلوغ=

ب ـ الإعلام في العهد الإسلامي الأول :

يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة : ومهما يكن من شيء ، فنحن إذا استعرضنا وسائل الاتصال بالجماهير في عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين ، فسنجد أن أقواها تأثيراً في النفوس ، وأعظمها نجاحاً في الترويج للعقيدة ما لا يقلّ عن تسع وسائل ، نذكرها مرتبةً حسب أهميتها على الوجه الآتي :

١ـ القرآن الكريم .

٢ـ الحديث الشريف والخُطَب النبوية .

٣ـ القدوة الحسنة من جانب الرسول صلوات الله عليه والصحابة كافةً .

٤ـ الاتصال الشخصي والجمعي ، وهو من أقوى وسائل الإعلام قديماً وحديثاً .

٥ـ أسلوب القصص ، وهو وسيلة إعلامية ظهرت أول ما ظهرت في القرآن الكريم ، ثم ظهرت على أيدي نفر ممن دخلوا في الدين الجديد ، وأطلق عليهم : القصاصين ، وكان لهذه الوسيلة أعمق الأثر في تعلّق المسلمين بهذا الدين ، ثم في ميدان الجهاد من أجل نشر هذا الدين .

٦ـ مواسم الحج ، أو مواطن التجمعات الإسلامية على أوسع نطاق ، وقد كانت هذه المواسم أشبه بالمؤتمرات الإسلامية الكبرى ، أو الأسواق العامة .

= الأرب للآلوسي : ١/ ١٨٤ ، معجم البلدان لياقوت الحموي : ٣/ ١٠٠ ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي : ١/ ٤٧١ ، فتوح البلدان للبلاذري : ٣/ ٥٤٩ ، وغيرهم .

٧ـ الغزوات .

٨ـ العلاقات الإنسانية .

٩ـ القصيدة الشعرية[١] .

أما القرآن الكريم فقد افتتح بكلمة ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق : ١] ، وذلك يتضمن معاني كثيرة ، منها اقتران العلم بالدين ، وارتباطه بالدعوة والإعلام الإسلامي .

وكان ذلك في مجتمع أمّيّ ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

وهكذا قام الباحثون بدراسة ما جاء في القرآن من أمور إعلامية ، فوجدوا أن فيه نظرية إعلامية متكاملة ، تتضمن عدداً من العناصر الاتصالية المتكاملة المتصلة الحلقات ، اعتماداً على نظرية الوحي ، حيث يوحى إلى الرسول ﷺ من عند الله ، فيقوم الرسول ﷺ بالتبليغ والإعلام ، والرسالة القرآنية تعتمد على أساس وضعه الله سبحانه وتعالى بموجبه للتأثير في نفوس الجماهير ؛ الذين يتلقّون هذه الرسالة .

والعنصر الأول هو الوحي المعجز ، حيث لا دخل للبشر في ذلك ، بل هو ربط بين السماء والأرض .

وأما عن كون الرسول ﷺ قد مارس دور الداعية والإعلامي المتميّز والقدير ، فذاك أمرٌ يطول شرحه ، لكن نكتفي بملخص قصير ، مفاده :

لقد أعدّ الله تعالى نبيه محمداً ليكون الإعلامي الناصح ، وذلك بأن جعله يمتاز عن أقرانه بعدّة صفات ، أهمها :

---

(١) الإعلام في صدر الإسلام ص : ٢٧ ـ ٢٨ .

حسن خلقه ، ورجاحة عقله ، وشجاعته ، وصدقه وأمانته ، ونسبه وأصالته ، وقوله الحق ، وعدله وإنصافه في الغضب والرضا ، وعدم الانتقام لنفسه ، بل لله عز وجل .

كما أعدّ الله تعالى له في بدايات البعثة بيئة مناسبة ومناخاً ملائماً ، ولما شاء الله تعالى أن تكون هذه الرسالة الخاتمة ، بذل الرسول ﷺ كل ما يمكن من جهد إعلامي ـ سراً وعلانية ـ من أجل إيصال الحق إلى الناس ، يقول الدكتور محيي الدين عبد الحليم : على الرغم من أن الإعلام بأجهزته ووسائله ونظرياته ، وتقنياته الحديثة لم يكن معروفاً وقت نزول الوحي على صاحب الرسالة ﷺ ، إلا أنه بتطبيق المقاييس العلمية الحالية على الدور الملقى على عاتق الدعوة الإسلامية ، نستطيع أن نقول : إن الإعلام كان ولا زال أداة هذا الدين ، ودعامته الرئيسة .

ولن نتجاوز الحقيقة إذا سمّينا الأشياء بمسمياتها الصحيحة حين نقول : إن الدين الإسلامي دين دعوة ، والدعوة عمل إعلامي ، بكل ما تحمل هذه العبارة من معنى في أذهان أساتذة وخبراء الإعلام والاتصال بالجماهير ، ذلك أن الدعوة ما هي إلا عمل إعلامي يخاطب العقل ، ويستند إلى المنطق والبرهان ، ويعمل على الكشف عن الحقيقة ، وإذا استعرضنا التعريف العلمي للإعلام نجد أنه يكون متطابقاً مع مفهوم الدعوة بمعناها الأصيل .

فالإعلام هو تزويد الناس بالأخبار الصحيحة ، والمعلومات السليمة ، والحقائق الثابتة بهدف تكوين رأي عام صائب ، في واقعةٍ من الوقائع ، أو حادثةٍ من الحوادث أو مشكلة من المشكلات .

والدعوة بهذا المعنى تختلف عن الدعاية بمعناها الحديث ـ من حيث استخدامها بعد الحرب العالمية الثانية على يد (هتلر وجوبلز) ـ بالرغم

من أن الأصل اللغوي لكل منهما واحد[1] .

وكانت بدايات إعلام الرسول ﷺ الناس سرّاً .

يقول محمد خير يوسف : (وحينما أمر الله تعالى سيّد الدعاة ﷺ بالتبليغ والإنذار ، اقتضت حكمته أن يلهمه التزام السرية في دعوته ، وأن يبدأ بها أقرب الناس إليه ، فأخذ صلوات الله عليه يُسرُّ بأمره إلى من يطمئن إليهم من أهله ، فكانت السيدة خديجة رضي الله عنها أول من آمن به من النساء ، وتبعها علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو في العاشرة من عمره ، فكان أول من آمن به من الصبيان ، ثم زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ ، فكان أول من آمن به من الموالي .

وبذلك انتهى سيّد الدعاة ﷺ من تبليغ الدعوة لأهل بيته ، وأكرمه الله تعالى بهذا ، فآمنوا جميعاً)[2] .

واستمرت سرية العمل قرابة ثلاثة أعوام ، بينما كانت مدة العمل بمكة عشرة أعوام .

ومن أهم الأشكال الاتصالية في الدعوة الإسلامية : اتصال النبي صلوات الله عليه الشخصي مع الناس ، سواءً كان ذلك عن طريق التقائه بالوفود ، أو عن طريق اجتماعه بواحد من المشركين وعرض الإسلام عليه .

وإنَّ الكثيرين من الذين أسلموا ، تحوّلوا إلى كبار الدّعاة إلى الله سبحانه وتعالى ، كأبي بكر حيث أسلم على يديه الكثيرون .

ثم آل الأمر أن راح الرسول ﷺ يعرض القرآن على المشركين ، يرتله

---

(١) الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية ص : ٧٧ـ٨٥ .

(٢) من خصائص الإعلام الإسلامي ص : ٤٧ـ٥٦ .

عليهم وهو يرجو من الله سبحانه الهداية لهم ، ولكن!!

أضف إلى ذلك ما كان يقوم به صلوات الله عليه من لقاء الوفود المنطلقة إلى الحرم المكي ، فيعرض عليهم ما جاء به من عند الله ، ويدعوهم إلى نبذ ما كان عليه الآباء والأجداد .

ولما لم تُفلح مع أهل مكة تلك الوسائل ، انطلق عليه الصلاة والسلام إلى خارج مكة عسى أن يهدي الله أحداً منهم .

وقصة ذهابه إلى الطائف من أجل ذلك الأمر مشهورة ، وقصة عرضه نفسه على القبائل في الأسواق والمواسم معروفة .

وقصة مقابلته صلوات الله عليه النصارى موجودة في كتب السيرة ، ووفد الأنصار دليل ساطع على كيفية ممارسة الإعلام .

ويدخل في ذلك أيضاً : إرساله الصحابة في مهمات إعلامية خارج مكة ، مثل : الهجرة إلى الحبشة ، وإرسال مصعب بن عمير إلى يثرب ، وهجرة الصحابة إلى يثرب ، كل ذلك على أسس دعوية إعلامية ، أهمها :

١ـ إيمان الداعي بالدعوة .

٢ـ تصديق القول بالعمل .

٣ـ الإخلاص في العمل .

٤ـ الجدال بالتي هي أحسن .

٥ـ الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة[1] .

وهكذا لو تتبعنا كل حركات الرسول ﷺ في مجالات الدعوة لوجدناها

---

(١) للتوسع يراجع : أسس دعوة خاتم النبيين ، الدكتور محمد عمر الحاجي ص : ٦٩ـ١١٠ .

من أنجح الوسائل الإعلامية ، مثال ذلك : بيعة العقبة الأولى ، والثانية ، وخبر الصحيفة ، ثم التركيز على بناء المسجد النبوي كأول عمل بعد الهجرة ، والغزوات ، وصلح الحديبية ، وفتح مكة ، والوفود الإعلامية ، وخُطَب الرسول ﷺ ، خاصة خطبة حجّة الوداع ، فهي وثيقة إعلامية لدستور متكامل في التشريع ، مما يتعلّق بالفرد والمجتمع والدول ، ويركز على الجوانب الاجتماعية وغير ذلك ، من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وشهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها »[1] .

وعلى المنوال نفسه سارت الدعوة إلى الله زمن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، حيث الفتوحات الإسلامية ، وانتشار كلمة التوحيد في الآفاق ، ودخول الناس أفواجاً في دين الله .

حيث إن الدعوة لم تنتصر بالسيف ، بل انتصرت بالفكر والصدق والأخلاق ، ذلك لأن إعلامنا الإسلامي هو إعلام إنساني ، يتبعد من حساباته الإكراه والحروب ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ ﴾[2] [البقرة : ٢٥٦] وقوله سبحانه : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] .

حتى الجهاد لا يكون إلا لحرية الإعلام الإسلامي ، قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [البقرة : ١٩٣] .

---

(١) رواه البخاري (٦٧) ومسلم (١٦٧٩) .

(٢) « تبين الرشد من الغي » : تميّز الهدى والإيمان من الضلالة والكفر .

وقد سطّر التاريخ صفحات من نور من خلال ما فعله الفاتحون المسلمون مع ألدّ أعدائهم ، من صليبيين وغيرهم .

يقول (سير توماس أرنولد) : لا يعرف الإسلام من بين ما نزل من خطوب وويلات خَطْباً أعنف قوة من غزوات المغول ، فلقد انسابت جيوش جنكيز خان ، واكتسحت في طريقها العواصم الإسلامية ، وقضت على ما كان بها من مدنيّة وحضارة .

على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من رقدته ، وظهر من بين الأطلال ، واستطاع بوساطة الدعاية أن يجذب أولئك الفاتحين البرابرة ، ويحملهم على اعتناقه ! !

جـ ـ تطور الإعلام مع تطور الزمان :

وهكذا استطاع الإعلام مواكبة تطور الزمان ، وما جاء به من اختراعات ونحو ذلك ، إلى أن كان القرن الواحد والعشرون ، حيث ثورة الاتصالات العالمية ، فجعلت الكون قرية صغيرة ، يُنْقل فيها الخبر بسرعة عجيبة ، فمن خلال الإنترنيت والشاشة الصغيرة طُويت المسافات البعيدة .

لكن مع كل ما حدث يبقى الإعلام الإسلامي محتفظاً ببعض الخصائص ، وقد ينفرد عن غيره بالكثير منها ، أهمها :

الأمانة ، العدل ، المساواة ، الإنسانية ، الشمولية ، الواقعية ، المثالية ، الملاءمة ، المسؤولية ، التوازن ، الحرية ، الموضوعية ، التأثير النفسي ، الجمال اللغوي ، الإيجاز .

ويبقى الإعلام الإسلامي مميّزاً ببعض الموازين ، وأهمها :

الصدق ، الدقة ، الآنية ، المرونة ، العمومية .

أما ما يدور حول وسائل الإعلام الحديثة ، فهي كثيرة ، لكن أهمها :

١ـ الصحافة .

٢ـ الإذاعة .

٣ـ التلفزيون .

٤ـ الأقمار الاصطناعية ، وشبكة الإنترنيت .

لكن ـ مما يؤسف له ـ أن بعض المتسلطين على الجوانب الدينية ، ما زالوا يُفتون بتحريم هذه الوسائل العلمية الإعلامية الحديثة ، تحت حجج ما أنزل الله بها من سلطان!!! والواقع يؤكد على ضرورة اقتنائها ، بل وأسلمة برامجها ، وإبعاد سلبياتها ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] وقوله سبحانه : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ ﴾ [المائدة : ٦٧] .

وقوله عز وجل : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم : ٤] .

فالوسائل الإعلامية ليست إلا سلاحاً ذا حدّين ، يمكن استخدامها للفسق والفجور ، ويمكن تسخيرها لصالح نشر الدعوة الإسلامية . فالمهم في هذه المسألة هو الإنسان ، وطريقة وغاية استخدامه للمخترعات الحديثة .

وبالتالي ، إذا بقينا نفعل كما يفعل الأعداء لفتنة شبابنا وفتياتنا ، ولإفساد كل ما له علاقة بالإسلام ، فإذا لم نوجد البدائل الشرعية ، من برامج تلفزيونية إسلامية ، ومواقع وصفحات هادفة على شبكة الإنترنيت ، وإذاعات موجهة إسلامية ، فإننا سنفاجَأ بأننا فقدنا مواقعنا كلها ، يوماً بعد يوم ، حتى نتلاشىٰ ونذوب في بوتقة الشعوب المتقدمة .

يقول الله تعالى وهو يصوّر تخطيط الأعداء ضد المسلمين :

﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ [النساء : ١٠٢] .

ومن أخطر الأسلحة المعاصرة أسلحة الإعلام ، فهم يشوشون صورتنا في إعلامهم ، ويلصقون تُهَمَ الإرهاب والتخلّف والهمجية بالمسلمين ، فهل نقف مكتوفي الأيدي ، نتفرّج على ما يفعلونه بنا ، أم ندخل إلى ساحات الصراع الحديثة ؟!

نسأل الله أن ينوّر عقولنا وقلوبنا بأنوار القرآن والسنة ، آمين .

* * *

الفصل الثاني

هذا إعلامهم.. فأين إعلامنا الإسلامي ؟!

ليس هناك أدنى شك في أهمية وسائل الإعلام ، ومدى تأثيرها في الأفراد والجماعات ، لذلك نرى الأمم تتسابق لامتلاك أحدث وأعظم الوسائل الإعلامية ، وتحاول الجماعات تسخير تلك الوسائل وتوظيفها وتوجيهها لخدمة أغراضها وخططها وتطلّعاتها ، ونحو ذلك .

ولذلك فإننا إذا حاولنا عقد مقارنة بين ما يفعله الغربيون عن طريق الإعلام، وما نفعله نحن المسلمين عن طريق الإعلام، لرأينا أمراً عجباً!!!

هناك عدوان منظّم من قبل الغربيين ـ وخاصة الأمريكيين ـ على ثقافات الآخرين ـ وخاصة الإسلاميين ـ وذلك تحت عنوان عريض ، أُطلق عليه (صراع الحضارات) ، وهو في الحقيقة خطّة (لأمركة) العالم ، تحت مظلّة (العولمة ، والنظام الدولي الجديد ، والقطبية الواحدة) .

ولعلّ السبب الرئيس لذلك هو الشعور بالتفوّق ، وما يرافقه من قناعة بأن الثقافات الأخرى هي ثقافات محلية وغير قابلة لأن تكون إنسانية عالمية! مصداق ذلك ما صرّح به (هيرمان ملفيل) حيث قال : نحن الأمريكيين شعبٌ خاص ، شعبٌ مختار ، إننا نحمل دفّة الخلاص لحريات العالم[1] .

واستخدم الأمريكان كل ما بوسعهم من وسائل الاتصال الإلكتروني ،

---

(١) أمريكا وغطرسة القوة ، يفجيني ولوجودفودي ص : ٣٥ـ٣٦ .

وذلك بهدف توسيع دائرة التأثير الثقافي الغربي على الآخرين ، وبالتالي فالمسألة أصبحت كما قال الإعلامي الأمريكي (هربرت شيلر) : إن صناع القرار السياسي الغربيين انشغلوا بالبحث عن بدائل تضمن استمرار السيطرة الغربية ـ وعلى وجه التحديد الأمريكية ـ على الأوضاع الثقافية والاقتصادية الدولية ، فاستقرّ رأيهم على التكنولوجيا كبديل ، وتتضمن هذه التكنولوجيا شبكات الكمبيوتر ونُظُم الأقمار الصناعية ، وتقوم هذه الشبكات ببثّ كميات هائلةٍ من الأخبار والمعلومات عبر دوائر عابرة للحدود القومية ، وأكثر من ذلك فإنها سوف تصبح في منأًى عن الرقابة المحلية[١] .

وهذا ما حدث على أرض الواقع ، بحيث سُلب المتلقّي من حيث لا يدري ميزة الانتقاء ، وتحوّلت المسألة إلى غزو مباشر ، وكان الرابح الأول (الإمبريالية الإلكترونية) والتي تعني حسب تعبير(توماس ماك فيل) :

إنها علاقة التبعية التي تأسست باستيراد معدّات الاتصال والبرامج الأجنبية ومعها المهندسون والفنيون ، وما يتعلّق بها من بروتوكولات ومعلومات ، وذلك بخلق الأسس لمجموعة من المعايير والقيم الأجنبية والتوقعات التي يمكن أن تغيّر الثقافة المحلية وعمليات التنشئة الاجتماعية إلى درجاتٍ مختلفة ، فالاستيراد يتنوّع من الكتب الهزلية إلى الأقمار الصناعية ، ومن الكمبيوتر إلى الليزر ، وبجانبها المنتجات الأكثر تقليدية ، مثل البرامج الإذاعية والمرئية والمسرح وأشرطة الخيالة (السينما) وخدمات البرق وعروض الإذاعة[٢] ،والشيء الرهيب أن

---

(١) الإعلام والترعيب الثقافي ، الدكتور عبد القادر طاش ص : ٦ـ٧ .

(٢) وسائل الإعلام الغربية ، الدكتور صباح أبو أصبع ، مجلة شؤون عربية ، عدد (١٧) عام ١٩٨٢م، ص : ٢٦ .

المادة الإعلامية كالأخبار ونحو ذلك تُسيطر عليها وتحتكرها كُبريات وسائل الإعلام الغربية ، فمثلاً (رويتر : وكالة الأنباء البريطانية) تسيطر على أكثر من ٦٠٪ من تدفق الأنباء في العالم .

من جهة أخرى استطاع الإعلام الغربي رسم صورة مشوّهة للمسلم ، بحيث يبدو (بدائياً ، وبسيطاً ، وشهوانياً ، ومادياً في فكره وفي مفهومه للجنة ، وهو لا يؤمن بالحوار إنما يتبنّى العنف والقوة والعدوانية و. .) .

وقام المستشرقون برسم صورة لنبيّ الإسلام صلوات الله عليه ، فسيمون أوكلي يصف النبي صلوات الله عليه بأنه (رجلٌ خبيثٌ جدّاً وماكر ، وأن ما يبديه من شمائل طيّبة كانت مجردّ أمر ظاهري ، يُخفي وراءه حقيقة نفسه التي كان يحكمها الطموح والطمع!!) .

والمستشرق الفرنسي (فولني) يصف رسول الله صلوات الله عليه بقوله : (إن الله جعل محمداً وزيره في الأرض ، وأعطاه المُلْك ليُخضع بالسيف كل من يرفض الاقتناع بقانونه. . . . وهو لا يعظ إلا بالقتل والمذابح)[1]!!

يقول (جاك شاهين) : إنه انصرف منذ عشرين سنة إلى تاريخ الصور السّائدة في الثقافة الشعبية الأمريكية فدرس ما يزيد عن (٢٥٠) كتاباً هزلياً ظهر خلال (٥٠) عاماً ، بدءاً من (دونالك داك) وحتى (سوبرمان) ، كما حلّل مئات البرامج والرسوم الكاريكاتورية التي فرضت على شاشات التلفزيون ، مثل (بوباي) و(ميجورداد) ، وأفلام رسوم متحركة يفوق عددها (٤٥٠) فيلماً ، أولها (رقصة فاطمة ١٨٩٣م) ، وآخرها (علاء الدين) الذي قدمته مؤسسة (والت ديزني)

---

(١) للتوسع يراجع : الاستشراق والخلفية الفكرية ، د . محمود زقزوق : ٤٥ـ٤٦ .

مؤخراً ١٩٩٣م ، ويخرج شاهين من كل ذلك بالقول : دلّت أبحاثي على أن كلمتي (عربي) و(مسلم) تُثيران ردود فعل عدائية يصعب معها على الجمهور أن يميّز الحقيقة من الخيال ، وربما لم يتعرّض أي شعب في العالم نتيجة ذلك إلى هذا المدى من سوء الفهم كما يتعرّض الـ(٢٧٠) مليون عربي ، كما هو شأن الإسلام ، الذي يعتنقه ما يزيد على بليون ، بينهم ٦ـ ٨ ملايين أمريكي ، أكثر الأديان معاناة نتيجة جهل الآخرين بحقيقته!

ويُشير (شاهين) إلى أن (هوليود) وهي مدينة السينما الأمريكية ، قدّمت منذ حرب الخليج ما يزيد على (٤٠) فيلماً ، منها (لعبة القتل) و(نينجا الأمريكي والإبادة) و(في الشمس) و(الدرع البشري) .

وغالت هذه الأفلام كلها في تشويه سمعة العرب ، إذ عرضت شريطاً لا ينتهي من الصور التي يبدو فيها العرب أشبه بشعوب منقرضة لشدة تخلّفهم ، ويمثّلون في الوقت ذاته خطراً رهيباً يهدّد الآخرين ، ولم تروِّح مشاهدها الوهاجة المتكررة عن أنفس الجمهور ببراءة ، بل وجهته إلى كراهية هذا ومحبة ذاك[1]!!

من جهة أخرى فقد قام (الدكتور مايكل هرسون) بإعداد كتاب عنوانه (أجهزة الإعلام الأمريكية والعرب) ، وصنّف بعض الصحف الأمريكية كما يلي :

١ـ مجلات مثل : تايم ، نيوزويك ، لايف ، كانت في الماضي كثيرة الانحياز إلى جانب إسرائيل ، ومؤخراً تعمل على تقديم تغطية محايدة للأحداث ، وإن كانت معاداة العرب لا تزال موجودة ، فيا عجباً لهذا

---

(١) حرب الخليج وصورة العربي في أمريكا : جريدة الحياة ، عدد (١٠٩٨٩) ص : ١٣ .

الحياد المزعوم ، كيف يكون ؟ ما دام الحقد موجوداً ومتأصّلاً ضد العرب والمسلمين في نفوس هؤلاء .

٢ـ مجلات رأي ، مثل : كومنتري ، التي تسيطر عليها اللجنة الأمريكية اليهودية ، ونيوزويك ، والتي لا شك في أن انحيازها إلى جانب إسرائيل لا يحتاج إلى دليل ، وإذا كان الشوك سائداً فلا تنتظر العنب .

٣ـ وكالات الأنباء التي تعتمد عليها كثير من الصحف الأمريكية ـ وكالة يونايتدبرس ، وأسيوتشيتدبرس ـ تغطي أحداث إسرائيل بعدد من المراسلين ، يساوي الذي يغطّون لها أحداث كل دول الشرق الأوسط الأخرى .

٤ـ نيويورك تايمز ، وواشنطن بوست ، تملكها أسرتان يهوديتان ، إلى جانب صحف أخرى رئيسة تميل إلى جانب إسرائيلي .

و(نفوبوست) لوس أنجلوس تايمز ، ولويفيل كامير جورنال ، ودالاس نيوز ، وشيكاجو ، وأطلانطا ، وكونستيوشن ، وسنت لويس ديباتش ، هذا بالنسبة للصحافة .

وأما الوسيلة الأخرى فهي التلفزيون الأمريكي ، فبعض العاملين فيه يقولون : إنه لأسباب فنية يُعدُّ إرسال الأفلام التلفزيونية من إسرائيل إلى أمريكا ، أسهل من إرسالها من الدول العربية ، وإن هذا يساعد على تغطية أكثر ، لكن حتى لو عرضت الأفلام الوثائقية ، فإن التلفزيون لا يقف على الحياد ، ولعلّ أهم مثال على ذلك فيلم (المذبحة) الذي قدّمه التلفزيون الأمريكي عن اليهود ضحايا النازية . وقد اهتم به الرأي العام الأمريكي كثيراً ، وأُعيد عرضه مرات ، ومرات .

وانحياز آخر ضد المسلمين من جانب التلفزيون الأمريكي ، يتمثل في البرامج والأفلام الترفيهية ، التي تقدّم العربي في صورة غير المتحضّر ،

قذر الملابس ، ثري بترول ، زير نساء ، مقامر . . . !!

و(جيمس بيرك) مدير البرامج في شبكة (سي بي أس) لا ينفي ذلك ويقول : أعتقد أن عامة المشاهدين يسرّهم رؤية المناظر التي توضح العربي في صورة غير لائقة ، وهو عامل يضعه مخرج البرنامج في ذهنه ، كشيء مهم مثل تقديم منظر جنسي ، أو إطلاق رصاص عنيف ، أثناء الفيلم لشدّ انتباه المشاهد[1]!! حتى الدعايات لم تخلُ من لمز وغمز بالعرب والمسلمين .

ففي دور السينما في فرنسا ، يشاهد الحضور قبل العرض إعلاناً عن مثلجات (بوظة) ، يظهر فيها رجل على هيئة بدوي ، يرتدي ثياباً رثة ، ويمتطي جملاً في صحراء قاحلة ، في حين تقود الجمل وبهدوء فتاة بدوية ، يغطي وجهها حجاب سميك ، لا يبدو من وجهها سوى العينان ، وتسير أمامه وهي حافية القدمين ، وفجأة يخرج الرجل قطعة (البوظة) من تحت إبطه ، ويلتهمها بنهمٍ شديد ، على أنغام موسيقا تصويرية مفرحة .

أما المقصود من هذه الدعاية ، فلا يخفى على أحد ، إنها تُظهر عبودية المرأة المسلمة لرجلها المستبد ، وهم في ذلك إنما يرمون للنيل من الإسلام كنظام اجتماعي ، يجحف بحق المرأة لصالح الرجل ، برغم ما في كل ذلك من مجافاة للحقيقة ، وتزويرٍ للواقع[2] .

وفي مقابلة مع جريدة (المدينة المنورة) وضّح السفير (إيكنز) موقف (كيسنجر) من العرب ، الذين كانوا يستقبلونه بالأحضان : إن لكيسنجر وجهة نظر محدودة تجاه العرب ، وقد قال في جلسات خاصة

---

(١) جريدة المدينة المنورة، عدد (٥١٣٨) ، تاريخ ١٢ ربيع الثاني ١٤٠١ هـ ص : ١٢ .
(٢) الرأي الأردنية : عدد (٤١٠٣) ، تاريخ ١٩٨١/٨/١٧ ص : ٢ .

بأنهم مثل الكلاب ، كلما ضربتهم لحسوا يديك!

وليس كيسنجر هو الوحيد من ساسة الغرب ممن وصفوا العرب بأنهم كلاب ، فقد سبقه السّير (ونستون تشرشل) عندما اعترض أحد الوزراء البريطانيين على سياسة الدعم لإيجاد إسرائيل ، وبأن ذلك سيثير العرب ، ومصالح بريطانيا معهم ، فقال : إن العربي مثل الكلب ، إذا رفسْته لعق حذاءك[1] . وفي أعقاب حرب رمضان ـ تشرين ـ جرى في البرازيل تجمّع ديني في كنيسة (الكرنتي) ، فألقى القسيس ـ وهو رئيس الكنيسة ـ كلمة تؤيّد حق اليهود في فلسطين ، وتتهجم على رسول الله ﷺ ، وقال : إنه طرد اليهود من المدينة دون سبب ، وكيف أن المسلمين اليوم يعيدون الكرَّة ، فيقتلون اليهود في يوم الغفران ، ويتحسّر على أولئك الضحايا الأبرياء ، ويدعو الجميع للتبرّع بقوت يومٍ واحدٍ لهم ، لينتصروا على الكفرة أتباع محمد[2]!!

وهكذا فجميع وسائل الإعلام الغربي : من صحافة ومذياع وتلفزيون ومسرح وسينما وجامعات وبعثات ومستشرقين ومناهج تعليم... والفن... والمؤتمرات.. كلها تلتقي على فكرة واحدة هي توجيه كل الأسلحة ضد المسلمين[3] .

* * *

---

(١) المدينة المنورة : تاريخها ٢٨ رجب ١٤٠٢هـ ص : ١٥ .

(٢) من مقال أحمد محايري : المجلد الخامس من بحوث المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة ص : ٦٣ـ٦٤ .

(٣) للتوسّع يراجع : الغارة على العالم الإسلامي ، أ . ل . شاتليله ص : ٣٣ـ٣٥ ، يقظة الفكر العربي في مواجهة الاستعمار ، أنور الجندي ص : ٢٢٩ ، جذور البلاء ، عبد الله التل ص : ٢٧٦ ، أفيون الشعوب ، عباس محمود العقاد ص : ١٣٠ـ١٣١ ، الإعلام العربي المعاصر ، يوسف أبو هلالة ص : ١٠ـ٢٧ .

تلك ليست إلا جزءاً من واقع الإعلام الغربي تجاهنا ، فماذا عنا نحن ، أين إعلامنا الموجّه لخدمة الدعوة ؟

شاء الله تعالى أن تكون الرسالة الخاتمة والتي أنزلت على خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، أن تكون للناس كافة ، بحيث لم تقتصر على جنسٍ دون آخر ، ولم تختصّ بشعبٍ دون شعب ، مصداق ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم : ٥٢] .

وقوله سبحانه :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وقوله عز وجل : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٥-٢٧] وقوله جل وعلا : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف : ٩] .

فالقرآن الكريم عالمي لا وليس للعرب فحسب ، وكذلك جاء التأكيد على تلك العالمية من خلال السنة النبوية ، ومثال ذلك :

ما جاء في « مسند الإمام أحمد » وغيره أن النبي ﷺ قال : « مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها ، وترك فيها موضع لَبِنَة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ، ويقولون : لو تمّ موضع هذه اللَّبِنَة ؟ فأنا في النبيين موضع تلك اللَّبِنَة »[١] .

وفي « المسند » أيضاً أن النبي ﷺ قال : « ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخله هذا الدين ، يعز عزيزاً ويذل ذليلاً ، عزّاً يعز الله به الإسلام ، وذلاً يذل الله به الكفر »[٢] .

---

(١) رواه الترمذي (٣٦١٣) وأحمد (٥/ ١٣٨) .

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٠٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٨١) والحاكم (٤/ ٤٣٠).

وفي « صحيح الإمام مسلم » أن النبي ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة ، يهودياً ولا نصرانياً ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به ، إلا كان من أصحاب النار »[1] .

وبالتالي ، فكل إنسان يدخل في الإسلام يتحول من وقته إلى داعية ، وقدوته في ذلك الرسول ﷺ والرعيل الأول رضي الله عنهم أجمعين .

قال تعالى يخاطب حبيبه محمداً صلوات الله عليه : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة : ٦٧] .

وقال سبحانه : ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [المائدة : ٩٩] .

وقد ورد في كتب السيرة ، وكتب الأحاديث كيف بلّغ الرسول صلوات الله عليه الدعوة ، وذلك حين انتقل من مرحلة السرية إلى مرحلة الجهر بالدعوة ، من ذلك مثلاً ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال :

لما نزلت : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[2] [الشعراء : ٢١٤ـ ٢١٦] .

خرج النبي ﷺ حتى علا المروة ، ثم قال : « يا آل فهر! » فجاءته قريش ، فقال أبو لهب : هذه فهرٌ عندك فقل ، فقال : « يا غالب! » فرجع بنو محارب وبنو الحارث ابنا فهر ، فقال : « يا آل لؤي بن غالب! » فرجع بنو تيم الأدْرم بن غالب ، فقال : « يا آل كعب بن لؤي! » فرجع بنو عامر بن لؤي ، فقال : « يا آل مرة بن كعب! » ، فرجع بنو عدي بن كعب وبنو سهم وبنو جمح ابنا عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي ، فقال : « يا آل كلاب بن مرة! » فرجع بنو زهرة بن كلاب ،

---

(١) رواه مسلم (١٥٣/ ٢٤٠) .

(٢) « اخفض جناحك » : أَلِنْ جانبك ، وتواضَعْ .

فقال : « يا آل عبد مناف! » فرجع بنو عبد الدار بن قصيّ وبنو أسد بن عبد العزّى بن قصي ، فقال أبو لهب : هذه بنو عبد مناف عندك فقل .

فقال رسول الله ﷺ : « إن الله قد أمرني أنْ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ أنذر عشيرتك الأقربين وأنتم الأقربون من قريش ، وإني لا أملك لكم من الله حظّاً ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله فأشهد بها لكم عند ربكم ، وتدين لكم بها العرب وتذلّ بها العجم » .

فقال أبو لهب : تبّاً لك! فلهذا دعوتنا! فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد : ١] يقول : خسرَتْ يدا أبي لهب[1] .

وعلى الرغم من أنه صلوات الله وسلامه عليه قد أقام الحجة عليهم ، إلا أن الكثيرين منهم قد أصرّوا على عنادهم ، واستكبروا على الدخول في الإسلام ، مصداق ذلك قوله تعالى وهو يصف حالهم تجاه الدعوة : ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴾[2] [ص : ٤ـ٨] .

وهكذا أخلص الرسول صلوات الله وسلامه عليه لله في كل أمور حياته ، وقدّم الغالي والرخيص في سبيل دعوة إلى الله ، فبلغ الرسالة ، وأدّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله حق جهاده ، حتى أتاه اليقين .

---

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣) ومسلم (٢٠٤/٣٤٨) و(٢٠٦/٣٥١) .

(٢) « عجاب » : بالغ الغاية في العجب . « الملأ منهم » : الوجوه من كفار قريش . « امشوا » : سيروا على طريقتكم ودينكم . « الملة الآخرة » : دين قريش الذي هم عليه . « اختلاق » : كذب وافتراء .

ولذلك فعلى كل مسلم أن يحمل لواء الدعوة إلى الله : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

وقد جعل الله سبحانه الأمة الإسلامية شهيدة على الناس ، قال تعالى : ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾[1] [الحج : ٧٨] .

لكن يبقى ذلك ضمن إطار الدعوة والإعلام ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص : ٥٦] .

أما إذا تقاعس أفراد الأمة الإسلامية عن واجب الدعوة والبلاغ والإعلام فهذا يعني أنهم قد عصوا الله تعالى ، من حيث إنهم قد كتموا العلم الشرعي ، وبالتالي يكون حالهم كما كان حال أهل الكتاب من قبلهم ، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[2] [آل عمران : ١٨٧] .

أجل!

على إعلامنا الإسلامي ـ بوسائله وأفراده ـ أن يقف في مواجهة الثقافات المعادية التي تريد إحداث شرخ في كيان أمتنا ، وعليه أن يقوم بتقديم دعوة الله للآخرين ، حسب القواعد القرآنية والنبوية ، وذلك عن

---

(١) « اجتباكم » : اختاركم لدينه وعبادته ونصرته . « حرج » : ضيق بتكليفٍ يَشقُّ ويعسر . « هو مولاكم » : مالككم ، وناصركم ، ومتولي أموركم .

(٢) « نبذوه » : طرحوه ، ولم يراعوه .

طريق الجدال بالتي هي أحسن ، وعن طريق الدعوة بالحسنى ، وعن طريق مناداة الآخرين أن يأتوا إلينا ، لنقف وإياهم على أرضية مشتركة ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[1] [آل عمران : ٦٤] .

وعلى إعلامنا أن يتحمّل دوره الأساسي في مواجهة التحديات الحضارية ، وما أكثرها هذه الأيام!

وعليه أيضاً أن يسهم إسهاماً كبيراً في بناء الفرد المسلم والجماعة المسلمة والمجتمع المسلم ، وذلك من خلال تقديم برامج هادفة واعية موجهة وشاملة ، إضافة إلى حمل لواء الدفاع عن الإسلام ، وكشف مخططات الأعداء ، ومناهضة الدعوات التخريبية .

ولا يُتصور أن ذلك ضربٌ من ضروب الخيال ، بل إن الإسلام يمتلك نموذجاً حضارياً ، لما قام الرعيل الأول بتطبيقه سادوا الدنيا ومدّنوها ، ونحن مطالبون اليوم بأن نعود إلى ما كان عليه الأجداد ، مع مراعاة تطور حركات الزمان ، وليس ذلك ببعيد : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور : ٥٥] .

وقد استقى جيلُ الصحابة من منبع القرآن ، وتكيَّف معه ، وتخرَّج عليه ، في عصر كانت تسود فيه حضارة الرومان والفرس ومخلَّفات الحضارة الإغريقية ، وحضارات الهند والصين . ومع ذلك كان التركيز على القرآن الكريم في فترة تكوين جيل الصحابة ، وكان ذلك عن تصميم

---

(١) « كلمة سواء » : كلام عدل ، أو : لا تختلف فيه الشرائع .

مرسوم ، بعيداً عن أي مؤثر آخر غير المنهج الإلهي الذي جاء به القرآن العظيم .

ولكن كانت التربيةُ على القرآن لا بقصد الاطلاع والثقافة والتذوق ، وإنما لتلقّي أمر الله في خاصة شأن الفرد ، وشأن الجماعة التي يعيش فيها ، وشأن الحياة التي يحياها ، وذلك التلقي يكون للعمل فور سماع الحكم والتكليف .

إن هذا الشعور أثناء التلقي كان يفتح للصحابة آفاقاً من المعرفة ، لم تكن لتُفتح لهم لو أنهم قصدوا من تلاوة القرآن مجرد البحث والدراسة والاطلاع .

لقد اختلطت الآيات بذواتهم ، وتحولت إلى منهج واقعي في حياتهم ، وإلى آثار وأحداث حوَّلت خط سير المسيرة الإسلامية ووجَّهته نحو هدفه .

وهذا هو المطلوب في هذا العصر . . . المطلوب من جميع المسلمين أن يدركوا سر تفوق جيل الصحابة ، وتخلف المسلمين وتراجعهم عبر العصور .

* * *

الفصل الثالث

الجوانب المؤثّرة في ملكية وسائل الإعلام

قال الراغب الأصفهاني في حديثه عن (الملك) :

(الملك : هو التصرّف بالأمر والنّهي في الجمهور ، وذلك يختصُّ بسياسة الناطقين ، ولهذا يُقال : ملكُ الناس ، ولا يُقال : ملكُ الأشياء ، والملك ضربان :

مِلْكٌ هو التملّكُ والتولّي ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ [النمل : ٣٤] .

ومِلْكٌ هو القوّة على ذلك ، تولّى أو لم يتولَّ ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ [المائدة : ٢٠])[1] .

أما في الاصطلاح الفقهي ، فهناك عدّة تعريفات ، نختار منها تعريف الإمام القرافي :

الملك : حكم شرعي مقدّر في العين أو المنفعة ، يقتضي تمكّن من يُضاف إليه من انتفاعه بالمملوك والعوض عنه ، من حيث هو كذلك[2] .

أما في الدراسات الإعلامية ، فنختار تعريف محمد سيد محمد : ملكية الصحيفة تعبير عن حرية الصحافة ، وكلاهما تعبير عن نظرية الإعلام السائدة في مجتمع من المجتمعات ، وانعكاس للنظام السياسي

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن ص : ٧٧٤ـ٧٧٥ .

(٢) الفروق : ١/ ٤٣٧ .

بأركانه المختلفة ، اقتصادية وثقافية واجتماعية وغير ذلك ، لذلك لا بدّ لنا من الرجوع إلى نظريات الإعلام لتكشف لنا الأبعاد الحقيقية للعلاقة بين ملكية الصحيفة وحرية الصحافة[1] .

(وهذا الترابط بين صورة الملكية والنظام الإعلامي ، يُظهر لنا مكانة ملكية وسائل الإعلام في الدراسات الإعلامية ، كما يبيّن أن الملكية هي الواجهة التي تظهر من خلالها صورة النظام الإعلامي وطبيعته ، وأنها تعبّر بصورة مباشرة عن الفلسفة التي ينبثق منها النظام الإعلامي .

وعلى هذا فإن الملكية الخاصة لوسائل الإعلام في بلد مثل أمريكا ، تعدّ تعبيراً عن النظرية الإعلامية السائدة فيها ، وهي النظرية الليبرالية ، والملكية العامة في الأنظمة الشيوعية تعبير عن نظرية الإعلام الشيوعية كذلك .

ومن هنا تأتي أهمية دراسة ملكية وسائل الإعلام في ضوء الإسلام ، وللوقوف على طبيعة الملكية التي تتناسب مع نظرة الإسلام لوسائل الإعلام ؛ باعتبارها وسائل نشر وتأثير في الناس ، أو وسائل اتصال وتحكم ، وذلك انطلاقاً من مصادر التشريع الإسلامي ، وآراء علماء الإسلام قديماً وحديثاً ، ومن خلال دراسة الجوانب الإيمانية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في الإسلام ، ومدى تأثر ملكية وسائل الإعلام فيها)[2] .

ويمكن تقسيم الدراسة إلى أربعة أقسام ، تتلخص فيما يلي :

١ـ العلاقة بين ملكية وسائل الإعلام ، والأبعاد والوظائف الأساسية في النظام الإعلامي التسلطي .

إن من أهم مقوّمات الحكم التسلّطي هي القوة والغلبة والقهر .

---

(١) اقتصاديات الإعلام ص : ٨٧ .

(٢) ملكية وسائل الإعلام ، د . محمد الخرعان ص : ٢٤ .

وأما عن تاريخها ، فتعود إلى قدم التجمّعات البشرية ، وذلك لأن الحكومات بأشكالها المختلفة سيطرت عبر التاريخ على وسائل الإعلام .

ويرى بعضهم أنها تعود إلى أفكار (أفلاطون) ، لكن بعض الباحثين يقول : إن نظرية التسلّط (تعتمد أساساً على فكرة الحق الإلهي للملوك ، وهي نظرية استندت إليها الحكومات الأوربية في عصر النهضة لتفرض الطاعة على رعاياها فرضاً ، فذهب أنصارها إلى القول بأن سلطان الحكّام مطلق لا تقيّده قيود ، وليس له حدود ، وهو تعبيرٌ صادق عن الإرادة الإلهية ، وأشاعت السلطة الدينية للكنيسة في تلك الأوقات صحّة هذه النظرة ، فلم يعد من حق الشعوب أن تسائل حكامها ، لأن حسابهم أمام الله ، فهو الذي أودعهم سلطته ، ووضع فيهم سرّه وأمانته ، وهو الذي يتولّى محاكمتهم عن أحوالهم)[1] .

أما القرآن الكريم الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصّلت : ٤٢] .

فقد حدثنا عن نماذج من التسلّط عبر التاريخ ، وركّز كثيراً على الذين وقفوا في وجه ما جاء به الأنبياء والمرسلون عليهم السلام ، مثال ذلك :

شيخ الأنبياء نوح عليه السلام ، أرسله الله إلى قوم عصاة ، فدعاهم إلى التوحيد ونبذ الأصنام والأوثان ، فما كان منهم إلا السخرية والاستهزاء ، ولم يترك فرصةً إلاّ وقدّم لهم فيها النصح ، ولم يجد أسلوباً لطيفاً وحكيماً إلا اتّبعه معهم ، لكن دون فائدة تُذكر ، بل كانوا يقابلون ذلك بالاستكبار والعناد ، وطلب التحدّي والعقوبات ، إلى درجة أنه صلوات الله عليه قد دعاهم قرابة ألف عام ، فما آمن معه إلا قليل!!

عندئذٍ رفع أمره إلى خالق السماء بلا عمد ، يطلب منه سبحانه أن يُنزل

---

(١) النظرة الإسلامية للإعلام ، د . محمد إمام ص : ٤٧ .

فيهم عقابه ، ومصداق ذلك ما جاء في الحكاية ، قال تعالى : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[1] [المؤمنون : ٢٤ـ٢٥] .

وخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، دعا قومه سنوات وسنوات ، وأقام عليهم الحجج ، وقدّم لهم البراهين العملية ، وحاور طاغية ذلكم الزمان (النمرود) .

فما كان منهم إلا الاستهزاء والسخرية ، والعناد والاستكبار ، ثم لجؤوا إلى التهديد ، وبالتالي إلى إلقائه في النار ، قال تعالى في الحكاية :

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات : ٩٥ـ٩٨] .

وكليم الله موسى عليه السلام أرسله الله إلى الرمز الأكبر للفساد (فرعون) ، فقدّم لهم البراهين ، وأبطل لهم السّحر .

فما كان من فرعون إلا الاعتماد على المقرّبين من حاشيته ، وخاصّةً السحرة .

وما كان منهم إلا أن أشاعوا بين الناس أن موسى كاذب ساحر ، قال تعالى :

﴿ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾[2] [طه : ٦٣ـ٦٤] .

---

(١) « الملأ » : وجوه القوم وسادتهم . « يتفضل عليكم » : يترأس ويشرف عليكم . « به جنة » : به جنون ، أو جن يخبلونه . « فتربصوا به » : انتظروا ، واصبروا عليه .

(٢) « بطريقتكم المثلى » : بسنتكم وشريعتكم الفضلى . « فأجمعوا كيدكم » : فأحْكِمُوا سحركم واعزموا عليه . « أفلح » : فاز .

ثم كانت المواجهة مع سحرة فرعون ، ولما رأوا الأمر على حقيقته سجدوا لله ، وعند ذلك جنّ جنون فرعون ، وراح يهدّد ويرعد ، لكن ما هي الفائدة من ذلك ؟ ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[1] [طه : ٧٠ـ٧٣] .

وتوظيف فرعون للسحرة ـ قبل إيمانهم ـ ليس إلا وسيلةً من وسائل الإعلام ، تماماً كما هو استخدام المال .

ومع كل ذلك عاند فرعون واستكبر ، وتجبّر وتسلّط ، فكانت النهاية إغراقه في البحر مع جنوده ، ومصداق ذلك قوله تعالى :

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2] [القصص : ٣٩ـ٤٠] .

وهكذا كان حال قارون ، والنمرود ، وقوم لوط ، وهامان ، وأبي لهب ، وأبي جهل .

وقد جاء الإسلام ليلغي الطواغيت والفراعنة ؛ ليكون الناس كافةً عبيداً لله الواحد الماجد .

أما أوربة فقد كانت غارقة في العصور الوسطى ، حيث التخلّف والجهل والتسلّط ، وأخذت الكنيسة الدور الرئيس في التسلّط ، حيث

---

(١) « والذي فطرنا » : أبدعنا وأوجدنا ، وهو الله تعالى .

(٢) « فنبذناهم في اليم » : ألقيناهم ، وأغرقناهم في البحر .

مارست طقوساً ما أنزل الله بها من سلطان ، وزعمت أن الحكام يستمدون سلطتهم من الله ، ومن مظاهر تسلطها ما يلي :

أ ـ تعزيز الكنيسة سلطتها الدينية الطاغية ، بادّعاء حقوقٍ لا يملكها إلا الله ، مثل : حق الغفران ، وحق الحرمان ، وحق التَّحلَّة .

ب ـ تعزيز الكنيسة لأوضاعها المادية عن طريق فرض العشور على جميع الإيرادات ، ومهما كانت ضئيلة ، وقد كانت تمتدّ إلى الطبقات الدنيا حتى تصل إلى خدم المنازل ، وهناك أيضاً الهبات التي كانت في بداية الأمر اختيارية ، ثم صارت بحكم العادة إجبارية ، وهي تشبه ما تسمى بـ(الإكرامية) ، وبجانب ذلك الغرامة المفروضة في شكل بهائم حيّة أو مواشٍ مذبوحة ، وهناك أيضاً ما يُعرف بضريبة الوفاة التي يستولي بموجبها السيّد على أفضل ما يخلّفه المزارع من حيوان ، باعتباره ملكاً غير موروث .

جـ ـ السيطرة على التعليم ، فقد كان القساوسة هم الذين يشتغلون بالتأليف أو قراءة الكتب دون سواهم تقريباً ، وكانوا في المناطق الواقعة شمالي الألب هم المحتكرين شرعاً للتعليم ، ابتداءً من المدارس الأولية ، حتى الجامعة!

د ـ سنّ القوانين لمحاكمة الخارجين على مبادئ الكنيسة وأصولها ، وإنشاء المحاكم المسماة بمحاكم التفتيش لهذا الغرض!

لكن التساؤل الملحّ هنا : هل انتهى التسلّط بانتهاء العصور الوسطى في أوربة ؟ أبداً ، لقد مارس هتلر ونابليون وغيرهما الدور نفسه[1]!

إذن :

لا تنحصر المآخذ التي تُؤخذ على النظام التسلّطي في سيطرته على

---

(١) يراجع : ملكية وسائل الإعلام ـ مرجع سابق ـ ص : ٥٠ـ٥١ .

حرية التعبير ، ولا في إخضاعه المجتمع للإقطاع والعبودية ، ولا في رفضه للفلسفة الليبرالية التحررية ، إنما يأتي في قمة تلك المآخذ وثنية النظام التي ترفض عبودية الله والخضوع له وحده على الوجه الصحيح ، وفي مصدرية المعرفة التي يجب أن لا تؤخذ إلا من مشكاة وحيه .

وعندما بدأت الصحافة تأخذ دوراً كبيراً في التأثير بالناس ، انتبه جماعة التسلّط إلى ذلك ، فوضعوا مخططات للسيطرة عليها .

وهكذا كانت القيود عليها ، ومن ذلك مثلاً : السيطرة عن طريق منح الرخص المهنية ورخص الطباعة والنشر ، أو طريق الرقابة القبلية والبعدية ، وإيقاع العقوبات الرادعة للمخالفين ، أو عن طريق احتكار ورق الطباعة وتقنين توزيعه ، أو الدعم السرّي والعلني .

وهكذا ، سيطرت السلطة على الصحف ، واحتكرت إصدارها والموافقة عن طريقها ، إضافةً إلى الرقابة الصارمة على كل ما ينشر فيها من أخبار ومقالات وآراء ، وسنّت القوانين التي تعاقب كل من يخالف قواعد النشر ، وفرضت الضرائب الباهظة ؛ وذلك بهدف إرهاق كاهل الصحفيين .

وهكذا انحصرت وظائف وسائل الإعلام في النظام التسلّطي بـ : المحافظة على قداسة النظام القائم ، وإلهاء الجماهير عن التفكير في القضايا الأساسية ، وتدعيم الطقوس الوثنية والخرافية والرفع من شأنها ، والعمل على تحقيق التماثل ، والاتفاق حول آراء واتجاهات السلطة ، ومحاربة الرأي المخالف .

وبذلك تملكت السلطة كل وسائل الإعلام ، دون أن يكون للآخرين دور في ذلك !!

٢ـ العلاقة بين ملكية وسائل الإعلام والوظائف الأساسية في النظام الإعلامي الليبرالي .

من تعريفات الليبرالية أنها (مذهب رأسمالي ، ينادي بالحرية المطلقة في الميدانين الاقتصادي والسياسي ، ففي الميدان السياسي وعلى النطاق الفردي ، يؤكد هذا المذهب على القبول بأفكار الغير وأفعاله حتى ولو كانت متعارضةً مع أفكار المذهب وأفعاله ، شرط المعاملة بالمثل ، وعلى النطاق الجماعي فإن الليبرالية هي النظام السياسي المبني على التعددية الأيديولوجية والتنظيمية الحزبية والنقابية التي لا يضمّها ـ حسب ذلك المذهب ـ سوى النظام البرلماني الديمقراطي الذي يفصل فعلياً بين السلطات الثلاث : التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية ، ويؤمّن الحريات الشخصية والعامة بما في ذلك حرية المعتقد الديني)[١] .

وتعود بدايات نشأة الليبرالية إلى ردّ الفعل العنيف لسيطرة الكنيسة الكاثوليكية في العالم الغربي ، حيث تحالفت الكنيسة مع الملوك ، وأعطتهم منزلة الحق الإلهي ، مما أدى إلى بروز طبقة الإقطاع ، وكانت المأساة الكبرى عندما وقفت الكنيسة ضد العلم والعلماء ، فقُتل من قُتل منهم ، وحُوكم من حوكم .

وكان لا بدّ من طرح البدائل ، ولذلك ظهرت أفكار (فرويد) في علم الاجتماع ، و(آدم سميث) في الاقتصاد ، و(جون لوك) في نظرية العقد الاجتماعي ، و(ميكافيللي) في السياسة ، و(دارون) في الانتخاب الطبيعي .

إضافة إلى ذلك ، برزت زعامات شابة مثقفة كأمثال (مارتن لوثر)

---

(١) موسوعة السياسة ، عدد من الكتّاب : ٥/٥٦٦ .

الذي أعلن حركة التمرّد على مسألة بيع صكوك الجنّة! وأطلق على تعاليم الكنيسة (تعاليم الشيطان) ، فانضم إليه المستضعفون من الفلاحين ، وكل من يعيش تحت وطأة الرقّ والاستعباد .

ورويداً رويداً تشكّل النظام الليبرالي .

والذي يهمنا في هذه الدراسة أن ملكية وسائل الإعلام في هذا النظام تقوم على عدّة دعائم ، أهمها :

أ ـ حرية التملك : ويعدّ هذا الحق من أهم الحقوق الطبيعية ، ويُنظر إليه بكل تقديسٍ واحترام ، فالإنسان ـ فرداً أو جماعة ـ له الحرية الكاملة ، مثلاً هو حرّ اقتصادياً ، بحيث لا تقيّده قيود على الاستيراد أو التصدير ، وله الحق في أن يمتلك ما يشاء ، وأن يعمل ما يشاء .

ب ـ حرية الرأي والتعبير : سواءً كان ذلك في المجال الفكري والعلمي ، أو في الجانب السياسي الذي يشتمل على حق الانتخاب وحق الاعتراض .

ويُعرف هذا النوع من الحرية بأنه (إمكانية تعبير الفرد عن فكره في أيّ أمرٍ من الأمور ، سواءٌ أكان سياسياً أم دينياً . . . إلخ ، وذلك دون موافقةٍ أو تصريحٍ سابق ، وحرية الرأي قد تكون بالقول أو الكتابة أو بأي وسيلة من وسائل التعبير)[1] .

ولقد نصّ الإعلان الفرنسي على أن (حرية تبادل الأفكار والآراء هي أثمن حقٍّ من حقوق الإنسان ، لذلك يحقّ لكل مواطنٍ أن يتكلّم ويكتب آراءه في صحفٍ مطبوعةٍ بكامل الحرية)[2] .

وترتبط حرية التفكير والتعبير بحرية الفكر الإنساني ، وتحقيق كرامة

---

(١) الحريات العامة في الإسلام ، الدكتور : محمد غزوي ص : ٢٠٠ـ٢٠١ .

(٢) الحريات العامة ، عبد الحكيم العبيلي ص : ١١٥ـ١١٦ .

الفرد والشعوب بحاجة ماسّة إلى عقد القِران بين بستان العلم ومطر الحرية ، وكتابة لوحات المعرفة بتصميم يُلهب النفوس ، فالحرية من ركائز البحث العلمي ، وتحريره من الزُّيوف . والتغيير المطلوب هو تغيير ثقافي نفسي ؛ من أجل تشكيل حياتي جديد ، وسدّ الخلل القائم ، والنهوض بالأمة .

جـ ـ **حق مراقبة الحكومة واعتراض عليها** : بما أن دور الدولة في النظام الليبرالي ضيق ومحدود ، لكن مع ذلك يمكن للأفراد القيام بدور الرقابة على أعمال الحكومة ونشاطاتها ، مثال ذلك : حق إنشاء الأحزاب والجمعيات التي تقوم بدور الحارس والمراقب على أعمال الحكومة .

لكن هل طُبّق ذلك على أرض الواقع ؟ أم هناك تناقض بين النظرية والواقع ؟ على أرض الواقع هناك ضرورات كبيرة وملحّة لوجود قيود على حرية التعبير ، وحرية الحصول على المعلومات ، فمثلاً (لم يمنع الولايات المتحدة أي شيء من إقرار عددٍ لا يحصى من القوانين التي تؤثر على سريّة المصادر لكل من الصحافة المطبوعة والمذاعة ، ومن إقرار قوانين تؤثّر على حضور الاجتماعات العامة ، أو السماح بدخول آلات التصوير إلى قاعات المحاكم ، أو إقرار قوانين تحكم التلفزيون الكابلي ، وفي مجال الإذاعة استخدم مفهوم القرن العشرين للطيف الكهرومغناطيسي كمورد محدود ، وبصفةٍ مستمرّة كأسأسٍ لمزيد من التشريع والتفسير)[1] .

أما وضع ملكية وسائل الإعلام في الدول الغربية فقد أثّرت فيه عدة عوامل ، أهمها :

ـ ملكية الدولة الكاملة أو المباشرة أو غير المباشرة .

---

(١) الاتصال الجماهيري ، جون .ر .بيتز ، ص : ٤٥٣ .

ـ الشركات الضخمة الاحتكارية التي توسّعت بدرجة اكتسحت بها الصحف الصغيرة ، وقضتْ عليها قضاء مبرماً .

ـ سيطرة أصحاب الإعلان .

يقول (هربرت . أ . شيللر) وهو يتحدث عن مفهوم التعددية الذي تدّعيه الليبرالية : (إن التشابه الجوهري في المادة الإعلامية ، وفي التوجّهات الثقافية التي تنقلها كل وسيلة من وسائل الإعلام بصورة مستقلة ، يستلزم بالضرورة أن تنظر إلى الجهاز الإعلامي بوصفه وحدة كاملة ، فالأنشطة الإعلامية يعزّز كلّ منها الآخر على نحو متبادل ومتصل ، وحيث إنها تعمل طبقاً لقواعد تجارية ، وتعتمد على الإعلانات ، وترتبط بصورة وثيقة باقتصاد المؤسسات الضخمة متعددة الشركات ، كلٌّ من خلال بنيته الخاصة وعلاقاته بالرعاة والممولين .

لذا فإن وسائل الإعلام تشكل صناعة ، وليس مجرّد حاصل إجمالي لمتعهدي إعلام مستقلّين ، ومالكين لحرية التصرف ، يقدّم كل منهم إنتاجاً ذا طابعٍ فردي خالص ، فبحكم الحاجة والتصميم فإن ما تقدّمه كل وسيلة من وسائل الإعلام من صور وأفكار وتوجهات ـ مع استثناءات قليلة ـ إنما يجري إنتاجه لتحقيق أهداف متشابهة هي ببساطة : جنْي الأرباح ، وترسيخ دعائم تَجمُّع الملكية الخاص الاستهلاكي)[1] .

أما عن وظائف وسائل الإعلام في هذا النظام الليبرالي ، فيمكن اختصارها فيما يلي :

ـ وظيفة الإخبار .

ـ وظيفة التفسير والإرشاد .

---

(١) المتلاعبون بالعقول ، هربرت . أ . شيللر ص : ٣٠ـ٣١ .

ـ وظيفة التعليم .

ـ وظيفة الترفيه[1] .

وهكذا ، فبين وظائف وسائل الإعلام وبين ملكيتها علاقة تلازم وتكامل ، بحيث ينبثقان من فلسفةٍ واحدة ، وتلك الوظائف لا يمكن أن تقوم بها وسائل الإعلام إلا إذا كانت ملكيتها بعيدة عن سيطرة الحكومة .

٣ـ العلاقة بين ملكية وسائل الإعلام والأبعاد والوظائف الأساسية في النظام الإعلامي الشيوعي .

قدّم (ماركس وإنجلز ولينين) الشيوعية على أساس أن لها أصولاً ، أهمها : (المادية التاريخية ، والمادية الجدلية ، وصراع الطبقات ، ونظرية الثورة ، ومذهب فائض القيمة ، ونظرية التطور الاشتراكي) .

وكانت الاشتراكية هي الأساس ، والتي تعني : (تملّك الجماعة ـ ممثّلة في الدولة ـ لمصادر الثروة الطبيعية ووسائل الإنتاج المادي الرئيسة ، وإدارة الدولة للاقتصاد القومي ، طبقاً لخطة شاملة ، تحقق إنتاجاً متزايداً يوزّع على الأفراد بقدر مساهمتهم في الإنتاج)[2] .

وتطوّرت الاشتراكية إلى الشيوعية ، (فقد كان كارل ماركس يهزأ بالاشتراكيين الذين عاصروه ، وينعتهم بالجهل والغباء ، وأنهم لا يفقهون ما يدور حولهم ، وخاصة تلك الثورة الصناعية .

ولقد كان واثقاً من انهيار النظام الرأسمالي ، ومن أن الهوّة سوف

---

(١) للتوسع يراجع : وسائل وأساليب الاتصال ، زيدان عبد الباقي ص : ٣٦٤ـ٣٦٦ ، والمدخل إلى وسائل الإعلام ، عبد العزيز شرف ص : ١٤٥ ، والأسس العلمية لنظريات الاتصال ، جيهان رشتي ص : ٦٥ـ٧٠ ، والإعلام وسيلة ورسالة ، جون فيرل ورالف لونشتاين ص : ١٣٧ .

(٢) الحريات العامة ـ مرجع سابق ـ ص : ٤٨٠ .

تتسع بين العالم وأصحاب الأعمال ، وستكون حالة الأولين في درجةٍ من السوء تحملهم على الثورة وإسقاط الرأسمالية ، وحينئذٍ يحلّون محلّها ، وستكون نتيجة هذه الثورة قيام (دكتاتورية الفقراء))[1] .

وهكذا وصلت الشيوعية إلى الحكم ، وذلك عند قيام (لينين) بالثورة الحمراء على القياصرة ، وذلك في مارس ١٩١٧م ، ثم دخلت الصين في قائمة الشيوعية ، وراحت تنتشر ـ الشيوعية ـ في كثيرٍ من دول أوربة الشرقية ، وتأثرت بعض البلاد العربية والإسلامية بذلك ، فقامت بعض الثورات لتُطيح بالاستعمار الأوربي ، ويحلّ محلّها أنظمة اشتراكية وشيوعية!!

أمّا ما يتعلّق بملكية وسائل الإعلام في النظام الشيوعي ، فإن الماركسية تنظر إلى وسائل الإعلام من خلال أن : وسائل الإعلام داخلةٌ ضمن وسائل الإنتاج ، وأنها وسائل لنشر الفكر والتوجيه والسيطرة .

ولذلك أخضع الشيوعيون وسائل الإعلام للفكر الشيوعي (فقد اعتنى الماركسيون بوسائل الإعلام ، وأعطوها عنايةً خاصة منذ بدء قيام الثورة الشيوعية في روسيا ، ورفض (لينين) إعطاء الفرصة لنقد الحكومة وتقويمها ، بل كان من أول القرارات التي اتخذها بعد قيام الثورة التحذير من خطر نشر الصحف المعارضة ، وهكذا في كل نظامٍ شيوعي في العالم)[2] .

وبالتالي ، لم تخرج مسألة السيطرة على وسائل الإعلام عن المنهج الشيوعي ، من حيث إنه قائمٌ على التخطيط المركزي ، فهو (تخطيط شامل لكل مرافق الاقتصاد ، وذلك أن الدولة هي المالك الوحيد للأرض ولرأس المال ، وتمارس كل ما تستطيع من سلطة على موارد العمل ، لذا

---

(١) اعرف مذهبك ، مارتين دودج ص : ٣٦ـ٣٧ .

(٢) النظم الإذاعية في المجتمعات الاشتراكية ، جيهان رشتي ص : ٣٦ .

فإن القطاع الزراعي ، والصناعي ، والتجاري ، كلها قد جُمعت تحت وحدة واحدة هي جهاز التخطيط)[1] .

وكثيراً ما كان أقطاب الشيوعية يتشدقون بحرية التفكير والتعبير ، لكن الحقيقة أن القضية لا تخرج عن جواب (ستالين) على سؤال أحد الصحفيين الغربيين ، فقال : (إن سؤال الصحفي يتضمّن تلميحاً إلى أن المجتمع السوفيتي يُنكر الحرية الفردية ، ولكن ذلك ليس صحيحاً ، فالناس هنا يستشعرون جوهر الحرية دون تحفظات ، ثم يتساءل : ما هي الحرية الشخصية للعاطل والجائع الذي لا يجد قوت يومه أو غده ، فضلاً عن أنه سوف لا يجد جزاء كدّه وعمله ؟ إن الحرية الفعلية لا تتحقق إلا إذا تمّ القضاء على الاستغلال ، وانتهى ظلم فريقٍ من الناس لفريقٍ آخر ، إن الحرية الحقيقية توجد إذا اختفت البطالة وانعدم التسوّل ، واطمأنّ الأفراد على أرزاقهم في يومهم وغدهم!!)[2] .

وتؤكّد الوقائع والأحداث أن الماركسية تنظر إلى وسائل الإعلام باعتبارها أداة لازمة للتوجيه والتحريك ؛ اللذين يجب أن يستقل بهما الحزب وحكومته!

فـ(سيطرة الحزب على الاتصال العام ، ينبع من حقيقة أنه أعطى لنفسه دور المعلّم والموجّه والقائد ، ومن افتراض أن الحزب يجب أن يؤثّر على سيكولوجية الجماهير ويكسبها إلى جانبه ، وبهذا تحدّث (لينين وستالين) باستمرار عن الصحافة والراديو وأشكال الاتصال الأخرى ، كأداة أو وسيلة في يد الحزب ، وكحزام يربط الحزب بالجماهير ، ووفقاً للفكر البولشيفكي ، فإن التخلّي عن هذه السيطرة على الاتصال قد يحوّل

---

(١) النظم الاقتصادية المعاصرة ، د . محمد حامد عبد الله ص : ٨٢ ـ ٨٣ .

(٢) الاتصال بالجماهير ، د . أحمد بدر ص : ٣٣٣ .

تلك الوسائل إلى مجرد مرآة تسجّل آلام وأفكار الجماهير ، وهو أمرٌ كان (ستالين) يرفضه ، فالنظرية البلشفية تعتبر غياب إشراف الحزب على وسائل الاتصال دعوة للسّير خلف الجماهير)[1] .

وبذلك بسطت السلطات الشيوعية سيطرتها على كل وسائل الإعلام ، سواء كان ذلك عن طريق : التمويل ، أو الإدارة والتخطيط ، وبالتالي أصبح حالها كما وصفها أديب منصور :

(إن الحزب أو المؤسسات والمنظمات الجماهيرية يجب أن تكون الممول ، وبالتالي تكون المالك الوحيد للصحف ، باعتبار أن ذلك هو السبيل الوحيد لضمان حرية الصحافة وخدمتها لمصالح الجماهير) .

(والحزب هو الذي يقود الصحافة ويوجهها ، وإن الصحافة هي أحد أهم الأسلحة التي يستخدمها الحزب في نضاله ، ولذلك لا بدّ من أن تكون دائماً تحت قيادته وتوجيهه ، حتى يستطيع أن يستخدمها بالشكل المناسب ، وحتى تتحقق بالتالي الأهداف المرسومة لها بدقة)[2] .

أجل!

لقد توقّع كبار أقطاب الشيوعية أنه ما إن يمضي سبعون عاماً على قيام الثورة واستلام الحزب الشيوعي الحكم ، حتى ينعم الناس على سطح الكرة الأرضية بالفردوس!

فلا طبقية ولا استغلال ، ولا فقر ولا شقاء ، إنما الكل يعمل وينتج ، والكل يأخذ حصصاً من ذلك ، وستختفي الدولة وأصحاب رؤوس الأموال .

لكن ماذا حدث على أرض الواقع ؟

---

(١) النظم الإذاعية في المجتمعات الاشتراكية ـ مرجع سابق ـ ص : ٢٣ .

(٢) النظرية العامة للصحافة ص : ١١ ـ ٢٨ .

ما إن مضى سبعون عاماً حتى انهارت المنظومة الاشتراكية والشيوعية في العالم ، حيث تفكّك الاتحاد السوفياتي إلى دول ، وحدث انقلاب على الشيوعية في الجيش السوفياتي ، وتحركت الشعوب في الشوارع ، وقامت المظاهرات الشعبية في كل دول أوربة الشرقية ، واقتلعت تماثيل (لينين) من ساحات موسكو ، وهُدم سور برلين ، وسحب الاتحاد السوفياتي قواته التي كانت متمركزة في دول أوربة الشرقية ، وتنفّس الناس الصعداء ، وراحوا ينادون بالحرية والملكية والانضمام إلى الأمم المتحدة .

وحدث تحوّل رهيب ، خاصةً عندما أعلن الرئيس السوفياتي (جورباتشوف) عن تطبيق نظرية (البريسترويكا) والتي تعني : إعادة البناء من جديد .

وعندئذٍ ، تبيّن للعالم أن ما كان يُسمّى أنظمة اشتراكية ، كانت قائمة بالنار والحديد ، والإعدامات الجماعية والسجون ، وكمّ الأفواه ، وما فترة (ستالين) إلا شاهد عيان على ملايين البشر الذين ذُبحوا باسم الثورة الثقافية وطبقة البلوريتاريا .

فأين الفردوس الشيوعي الذي توقّعه كبار أقطاب الشيوعية ؟!

لقد ذهب كل شيء أدراج الرياح ، وصار كقشّة في مهبّ العاصفة ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ [الرعد : ١٧] . وهذا حال كل من يخالف منهج الله ، فهو يقف على حافة الهاوية ، لأنه مفلس في عالم القيم ، ولا تنمو الحياة دونها ، وهكذا يدفع الإنسان ثمن الشرود عن منهج الخالق وعن الفطرة البشرية الصافية .

٤ـ ملكية وسائل الإعلام في الإسلام :

تتّسع دائرة وظائف وسائل الإعلام في الإسلام لتشتمل على : (كل

ما يمكن أن يقوم به الإعلام من جهدٍ مشروع ، يعود بالنفع والخير على المجتمع المسلم وأفراده ومؤسساته ، ويساهم في نهضته وقوته وتماسكه) وبالتالي يمكن الأخذ بما توصل إليه محمد كمال الدين إمام في تحديد وظائف الإعلام الإسلامي في الوظيفتين التاليتين :

(**الأولى ـ الوظيفة البنائية** ، ويعني بها دور الإعلام الإسلامي المبذول في سبيل إقامة البناء الفكري للإسلام ، وبالتالي فإنه في ميدان الوظيفة البنائية يمكن تحديد استراتيجية العمل على النحو التالي :

أ ـ تحرير المفهوم الصحيح للإسلام ، ومحاربة أي محاولة لعزل الدين عن الحياة .

ب ـ تنشئة جيل مسلم قوي صحيح الإسلام . ومن داخل الوظيفة البنائية يقوم الإعلام الإسلامي بنفس الوظائف التقليدية الموجودة في الإعلام المعاصر ، وهي وظيفة التعليم ، ووظيفة التربية .

الثانية ـ الوظيفة المعيارية ، وتعني جهد الإعلام الإسلامي في وزن المادة المرسلة من أجهزة الإعلام في الداخل ، أو القادمة من الإعلام الخارجي ، وهذا الدرو المعياري يحتوي وظيفة الإقناع في الإعلام المعاصر ، ويتضمّن في داخله الإقناع بفساد الرأي المضاد ، والإقناع بصلاحية الإسلام)[1] .

ويدعم تناول ملكية وسائل الإعلام من وجهة النظر الإسلامية عدة أمور ، أهمّها :

ـ اختلاف طبيعة وسائل الإعلام عن وسائل الإنتاج الاقتصادية الأخرى .

---

(١) النظرة الإسلامية للإعلام ، د . محمد كمال الدين إمام ص : ٢٨٢ـ٢٨٤ .

ـ أن نظام ملكية وسائل الإعلام في النظم الإعلامية الوضعية انبثاق من أصولها التي قامت عليها .

ـ إن كل نظام من تلك الأنظمة الوضعية مختلف عن الآخر في طبيعة ملكية وسائل الإعلام .

ـ وهذا يقوم على حقيقةٍ شرعيةٍ وواقعيةٍ ، وهي أن الإسلام شاملٌ وكاملٌ لكل جوانب الحياة المختلفة .

ـ إن العمل بأحكام الإسلام وشرائعه ، وتطبيقها في جميع شؤون الحياة فرضٌ إلهيٌّ ، لا يسوّغ تركه أو التساهل فيه .

ـ إن العمل بالإسلام يتطلب بيانه للناس ، وبيان أحكامه[1] .

إذن : كيف ينظر الإسلام إلى ملكية وسائل الإعلام ؟

إذا كانت الليبرالية قد نادت بإطلاق حرية التملك ، دون قيود ولا رقابة ، وإذا كانت الشيوعية قد احتكرت كل الملكيات وحصرتها في الملكية العامة ، فإن الشرعية الإسلامية أخذت المنهج الوسط .

والمهم أن تكون غاية وسائل الإعلام أمراً مشروعاً مباحاً ، وأن تكون ملتزمة بالقرآن الكريم والسنّة النبوية ، وأن يكون توجُّهها لله عز وجل ، وللشريعة الإسلامية ، وبالتالي فالذين يحق لهم تملّك وسائل الإعلام من الأفراد ، يجب أن يكون كل واحد منهم مؤمناً ، صحيح الإيمان ، لا أن يكون من أهل الكبائر ، أو أهل البدع ، أو أهل النفاق ، وأن يكون واضح الولاء للمسلمين وللدولة الإسلامية ، وأن يكون عاقلاً رشيداً مميزاً ، إضافة إلى كونه مطّلعاً على الجوانب التقنية والفنية لتلك الوسائل .

أما عن ضوابط الممارسة ، فهي نوعان :

---

(١) للتوسّع يراجع : ملكية وسائل الإعلام ـ مرجع سابق ـ ص : ١٢٤ـ١٢٧ .

١ـ الضوابط العامة للممارسة : وتعني الغايات والأهداف التي تجب مراعاتها ، وذلك :

أ ـ بأن تكون الغاية من إنشاء الوسيلة وما تسعى إليه هو تحقيق القيام بأمر مشروع ، كالدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونشر العلم وتعليمه ، ونشر الأمور المباحة كالشّعر الحسن ، والخبر الصادق ، ونحوه .

ب ـ أن تلتزم منهج الكتاب والسنّة وإجماع الأمة في تناول القضايا المختلفة ، سواء الاعتقادية أو الاجتماعية أو الفقهية أو السياسية أو غير ذلك .

٢ـ الضوابط المتعلقة بإدارة المنشأة (العنصر البشري) : أي الشروط اللازم توافرها في الأفراد العاملين في المنشأة الإعلامية ، سواء في الأعمال التحريرية ، أو المراسلة ، أو الأعمال الفنية والتشغيلية .

ولذلك يجب أن تتوافر فيهم الضوابط المطلوبة شرعاً ، بحيث لا يستعمل المالك إلا أهل الصلاح والتقوى والإيمان ، وأن يستغني عن أهل الضلالة والفجور ، والفسق والانحراف ، ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٧] .

ورحم الله الإمام ابن تيمية عندما أوضح ذلك بقوله :

(يجب على كل ولي أمرٍ أن يستعين بأهل الصّدق والعدل ، وإذا تعذّر ذلك استعان بالأمثل فالأمثل ، وإن كان فيه كذبٌ وظلم ، فإن الله يؤيّد هذا الدّين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خَلاَق لهم ، والواجب إنما هو فعل المقدور ، وقد قال النبي ﷺ ، أو عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « من قلّد رجلاً على عصابةٍ وهو يجد في تلك العصابة من هو أرضى منه ، فقد

خان الله ، وخان رسوله ، وخان المؤمنين »)[1] .

أما الكافر ، فلا يُستعان به إلا للضرورة ، أو في الأمور التي لا علاقة لها بأعمال القيادة والتوجيه ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ١٤١] .

مع شرط أن يُؤمَن مكره وخيانته ، أو أن ينحصر عمله في الأعمال الفنية فحسب .

كذلك ، لا تمانع الشريعة الإسلامية من أن تقوم هيئات خاصة بامتلاك وسائل الإعلام ، ذلك لأن الاجتماع هنا يكون على الخير والتعاون ، والله سبحانه وتعالى قد رغّب بالتعاون ، ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ [المائدة : ٢] .

وقوله عز وجل : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ ﴾ [التوبة : ٧١] .

ومصداق ذلك قول المصطفى ﷺ : « مَثَل المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى »[2] .

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وهو يتحدث عن الضوابط الأساسية للاجتماع :

(١ـ أن يكون اجتماعهم على ما أمر الله به ورسوله ﷺ ، من غير زيادة ولا نقصان .

٢ـ أن لا يُبنى على هذا الاجتماع تعصّب لمن دخل حزبهم بالحق

---

(١) مجموع الفتاوى : ٢٨/ ٦٧ .

(٢) رواه البخاري (٦٠١١) ، ومسلم (٢٥٨٦) .

والباطل ، والإعراض عمن لم يدخل حزبهم ، سواء كان على الحق أو على الباطل ، لأن ذلك من التفرّق الذي ذمّه الله تعالى ورسوله ﷺ ، فإن الله ورسوله ﷺ أمرا بالجماعة والائتلاف ، ونهيا عن التفرقة والاختلاف ، وأمرا بالتعاون على البرّ والتقوى ، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان)[1] .

والنظرة الشرعية لجواز امتلاك وسائل الإعلام من قبل هيئات أو جماعات أن هذه الصورة من الملكية تحقق ما لا يستطيع الأفراد منفردين القيام به من الواجبات الشرعية المشتركة ، إضافة إلى أن هذا النوع مكمّل لجهود الدولة في الإسلام .

وهكذا تنظر الشريعة الإسلامية إلى مسألة تملّك الدولة وسائل الإعلام على أنه أمرٌ مباح ، فهو يدخل تحت باب حقّ الردّ إلى ولاة الأمر ، وأنه من لوازم السلطة ، وأن الأصل في الأشياء الإباحة .

ومثلها مسألة الملكية المشتركة بين الدولة وبين الأفراد أو الهيئات ، والهدف من الملكية المشتركة : تكميل ما عجز الأفراد عن القيام به ، وضبط ما يخشى منه أن يتحوّل عن هدفه الأساس لأهداف أخرى .

أما عن أهم الجوانب المؤثّرة في ملكية وسائل الإعلام في الإسلام ، فهي :

١ـ الجانب الإيماني : وأهم الواجبات الشرعية فيه هي :

أ ـ واجب نشر الدين والدعوة إليه والدفاع عنه .

ب ـ واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

جـ ـ النصيحة .

---

(١) مجموع الفتاوى : ٢٨/ ١٣ .

د ـ واجب التكافل بين المسلمين .

٢ـ الجانب السياسي : وتلاحظ هنا عدّة أمور ، هي :

أ ـ جميع الوظائف المطلوبة من وسائل الإعلام الإسلامي هي جزء من الواجبات المنوط بالإمام القيام بها .

ب ـ هناك واجبات مشتركة بين الأفراد والقيادة .

جـ ـ ومن واجب الدولة القيام بمراقبة هذه الوسائل الإعلامية وما يصدر عنها .

٣ـ وفي الجانب الاجتماعي : يجب أن تركز وسائل الإعلام على نشر القيم والعلم الصحيح ، وأن تكون البرامج جاهزة لعمل أي أمر فيه الخير والنفع للجميع ، كإصلاح ذات البين ، وما إلى هنالك ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1] [الرعد : ١٧] وبذلك يكون التغيير الاجتماعي في الإسلام[2] .

* * *

ولو أخذنا مثالاً واقعياً ، فقارنّا بين ما كان عليه الرعيل الأول ، وبين ما تفعله وسائل الإعلام الغربي اليوم ، لوجدنا أمراً عجباً!!

قد يبدو للناس اليوم أن الإعلام الغربي مستقلّ تماماً ، فلا رقابة ولا سلطة عليه ، ولا يخضع لحزبٍ ولا جمعيةٍ ولا نحو ذلك .

لكن في الأمر مغالطات كبيرة ، ففي الظاهر يبدو أن هذا هو وضع الإعلام الغربي ، ولكن الحقيقة تكشف أن عليه قيوداً كثيرة .

---

(١) « الزَّبَد » : هو الخَبَثُ الطافي عند إذابة المعادن . « جفاء » : مَرْميّاً به ، مطروحاً ، أو متفرقاً .

(٢) للتوسّع يراجع : ملكية وسائل الإعلام ـ مرجع سابق ـ ص : ١٣٧ـ٢٥٦ .

مثال ذلك : القيود الأمنية ، خاصةً أثناء الحروب والنزاعات العسكرية ، ففي حرب الفوكلاند بين الأرجنتين وبريطانيا لم يُسمح للصحفيين البريطانيين بنشر أخبار المعارك إلا بعد أن تمرّ تقاريرهم على الجهات الأمنية ، من أجل أن لا يؤثّر ذلك على نفسية الشعب البريطاني!!

وفي الحرب الأمريكية الفيتنامية حدثت تجاوزات كبيرة من قبل الجيش الأمريكي ، لكن الصحفيين لم يستطيعوا الكتابة عنها ، وذلك لأن كلّ من يقوم بذلك ، يُتهم بأنه عميل للشيوعية!!

وأضف إلى ذلك : القيود الثقافية ، فالغربي يعيش منذ نعومة أظفاره نمطاً جاهزاً لا يمتّ إلى الموضوعية بصلة ، وملخصه : تقسيم العالم إلى ثنائية مضادة ، غربٌ متقدّم ، مقابل شرقٍ متخلّف ، مما يضطر الصحفي أو الإعلامي الغربي يوماً ما إلى أن يسير على النمط الثقافي ، ويخاطب الآخرين بهذا النمط ، وهذا ما يُطلق عليه (الرقابة المستترة) .

إضافةً إلى ذلك ، هناك نقطة مهمة أشار إليها السياسي الأمريكي (ناعوم تشومسكي) بقوله : (صناعة الموافقة ، تعني : إقناع الجماهير أو الأغلبية الصامتة بالموافقة على توجّه معيّن ، في السياسة والاقتصاد ومجمل التفكير ، وذلك عن طريق تهميش الجماهير ، وخلق العدو .

ويعتبر خلق العدو عنصراً هامّاً بالنسبة لسيكلوجية الأمريكان في (صناعة الموافقة) من أجل التغلّب على ما يُطلق عليه (عقدة فيتنام ، أو Vietnam Syndrom . وهو مصطلح اكتسب شهرة في السبعينيات ، ويعني « وجود المناعة النفسية لدى الأمريكان من تجربة استخدام القوة العسكرية »)[1] .

---

(١) الإعلام وحرب الخليج ، ناعوم تشومسكي ص : ٩٢ .

(ويضيف تشومسكي بأن الحاجة إلى صناعة العدو قد تزايدت عند أمريكا في العقود الثلاثة الأخيرة ، حيث إنه في أعقاب كل (٦٠) سنة تقريباً ، لا بدّ وأن يعمل الغرب على تشييد صورة وهمية لعدو من نوعٍ جيد ، كي يسوِّغ للآخرين دفاعه عن نفسه منه .

ويقول تشومسكي : إن روسيا أو الشيوعية كانت تمثل ذلك الوحش في أثناء الحرب الباردة ، والعدو اليوم هو العرب أو الإسلام .

ويضيف بأنها عملية تخويفية مهمة من أجل إشغال الناس ، وتجميع الناس لا حول أنفسهم ـ وقد همّشهم الإعلام ـ ولكن حول الدولة للحصول على الثقة والموافقة ، وكي تتمكّن الدولة من إخراس صوت المعارضة عن طريق توحيد الصفوف الشعبية ضد (عدوّ أسطوري) ، وتعليق كل المشاكل الداخلية من ارتفاع نسبة الجرائم وتدنّي خدمات الصحة والتعليم)[1] .

(ومن جانب آخر يُشير (مارتن شو) إلى أن الإعلام الغربي قام بتغطية حرب الخليج الثانية لأسباب منها : أن الدور الإعلامي يزداد أهمية في حالة الأزمات والحروب لما في ذلك من إثارة وجاذبية ، ولكن الأهم أن حرب الخليج وقعت في حسّ الغربي ضمن تقسيماته النمطية (للآخر) ، أي الشرق العاطفي الذي وقع في ورطة ويحتاج إلى (عقلانية) الغرب وتكنولوجيته من أجل إنقاذه) .

وكانت حرب الخليج ـ كما يقول إدوارد سعيد ـ الأرضية التي استطاع الغرب من خلالها تعزيز نمطيته عن (الآخر) ، وبالتالي التعميق من الشعور (بذاته) بفخر! ويشير (بروس كمينج) في كتابه (الحرب والتلفزيون) ، إلى أن الإعلام الغربي أثناء حرب الخليج الثانية كان يوازي

---

(١) موقف الغرب من الإسلاميين . هشام العوضي ص : ٣١ـ٣٢ .

بين (العدوّ) الآخر ، وبين (هتلر) الذي كان في حسّ الإنجليز والفرنسيين نموذجاً تشبيهياً للتعصب واللامنطقية .

وقد استعمل الإعلام التشبيه نفسه تماماً في حرب الخليج الثانية ، ولكن هذه المرّة مع الخميني .

ويقدّم (جريج فيلو) في كتابه (الإعلام البريطاني وحرب الخليج) دراسة أخرى مفصّلة عن أداء الإعلام البريطاني أثناء الحرب من جهة التلفزيون والإذاعة والصحافة ، محدداً ثلاثة مواضيع أساسية في أولويات التغطية ، وهي :

أ ـ تشويه صورة العدو ، عن طريق المبالغة والحرب النفسية .

ب ـ التأكيد على أن الحرب حتمية .

جـ ـ وأنها ستكون حرباً (نظيفة) ، ومن غير خسائر ! !

وهكذا يحدث في الأفلام السينمائية .

ففي كتابه عن (حرب هوليود في الشرق الأوسط) يستعرض (ستيفن برنس) النمطيات التي تروّجها أفلام (هوليود) عن المسلمين والعرب ، وهي :

١ـ أن الشرق الأوسط منطقة ثابتة مملّة ، لا تخضع لمقاييس المكان والزمان والتاريخ ، على عكس الغرب المتجدّد والمتغيّر دوماً .

وهذا يتّضح في الأفلام التي تصوّر العربي كخلفية سمراء للشاشة ، التي يبرز في وسطها (البطل الأوربي الأبيض) ، ويؤرّخ الفيلم بدقّة لحياة (البطل) ، ولكنه يتجاهل تاريخية المكان واللغة والتراث للشعب الذي يعيش بينه .

٢ـ تصوير الصراع بين الغرب والعرب على أنه صراع بين قوى الخير

ضد قوى الشر ، أو بين التحضّر والمدنية في مقابل البدائية والتخلف .

٣ـ استخدام رموز نمطية للعرب تصوّرهم على أنهم متخلّفون وعاجزون .

٤ـ خلق جوّ من العداء بين الشرق والغرب ، والاحتفاء بالتقدّم التكنولوجي عند الغرب ، ومحاولة إقناع (الآخر) بضرورة استجداء المساعدة الغربية شمولياً!!) .

لكن هل استراتيجية الغرب في التعامل مع الإسلاميين واحدة ؟

(يختلف المفكرون الغربيون أيضاً على الطريقة التي يتعاملون بها مع التيار الإسلامي .

فالتيار الاستشراقي المناهض يرى ضرورة تجنّب الاعتراف بالإسلاميين ، مطالباً الغرب بسياسة غربية متشدّدة ، فيما يرى التيار المتفهّم أهمية صياغة سياسة غربية متفهّمة لمشاكل العالم الثالث .

ويرى التيار الاستشراقي بأنه لا ينبغي السماح للإسلاميين بالمشاركة في السياسة ، سواء كانت ديمقراطية أو غيرها ، وهي الوسيلة المجدية للقضاء على جذور الصحوة الإسلامية .

ويصنف (مارتن كريمر) الذين يمثّلون تيار العالم الثالث المتفهم بالسذاجة ، عندما يرون في الإسلام القابلية للإصلاح ، وإمكانية الوصول إلى توافق بين الغرب والتيار الإسلامي ، ويحذّر من أن بعض المفكرين كان لديه مثل هذا الاعتقاد في بداية القرن الماضي ، ولكنه أُصيب بخيبة أمل فيما بعد .

ويؤكّد (كريمر) على أن موجة الظاهرة الإسلامية الحالية من شأنها الانقضاء بنهاية هذا القرن ، كما انتهت موجات إيديولوجية أخرى ، لو جوبهت بسياسة أمريكية أقل تسامحاً من سياسة (جيمي كارتر) التي أدّت

باسم حقوق الإنسان إلى ظهور فترة (آيات الله)!

أما التيار المتفهّم فيرى أنه ينبغي السماح للإسلاميين بالمشاركة في العمليات الانتخابية في بلدانهم ، حيث لا يرى (جون أسبوزيتو) أي تضارب جوهري بين الإسلام والديمقراطية ، قائلاً : إن تصريحات بعض القيادات الإسلامية المناهضة للديمقراطية الغربية تأتي في سياق رفض السيطرة الغربية ، وليس بالضرورة رفض جوهر الديمقراطية نفسها) .

وهكذا تبقى المصالح ـ خاصة الاقتصادية منها ـ هي الهدف الأول والأخير .

(أما (فيب مار) فهو أكثر مباشرة في تحديد المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط وهي :

١ـ الحفاظ على تدفّق البترول بأسعار وكميات مناسبة .

٢ـ حماية إسرائيل .

٣ـ القضاء على أسلحة الدمار الشامل .

٤ـ التقليل من الخراب الناتج عن عدم الاستقرار .

٥ـ الترويج لإصلاحات سياسية واقتصادية .

وترتيب هذه المصالح ليس بالشكل الجامد الذي يوحي إليه (فيب مار) بل ترتيبها يختلف بحسب كل دولة ، إضافة إلى أن بعض المصالح متناقضة مع بعضها البعض ، كما في حالة الجمع بين الترويج لإصلاح سياسي ، وفي الوقت نفسه الحفاظ على تدفّق البترول ، مما يعطي الانطباع بأن المصلحة الخامسة ـ من المصالح الآنفة الذكر ـ هي لمجرّد الاستهلاك الدعائي في الغرب)[1] .

---

(١) مقتطفات من كتاب موقف الغرب من الإسلاميين ـ مرجع سابق ـ ص : ٥٧ـ٨٦ .

وهكذا وجدنا الغرب ينظر إلى الإسلام والمسلمين كعدوٍّ بديل عن الشيوعية التي كانت في يومٍ من الأيام العدوّ اللّدود للغرب ، فهل تتبدّل تلك الصورة المأساوية للإسلام ؟ وهل تتغيّر استراتيجيّة الغرب في التعامل مع الإسلاميين ؟ وهل تغيّر موقف الغرب تجاه المسلمين بعد انتهاء الحرب الباردة ؟ وهل تتبدّل المسألة من المواجهة إلى الحوار والمصارحة ؟!!

في الجواب نقول : لقد اتّبع المشركون مع المسلمين الأوائل حرباً نفسيةً رهيبة ، وخاصة في العهد المكّي ، ومع ذلك خرجوا منها منتصرين ، وملخص ذلك ما يلي :

لقد قدّم القرآن الكريم علاجاً ناجعاً للوقوف أمام الذين يقومون بالحرب النفسية ، حيث يشعلون نار الفتنة لتفتيت الجبهات المتآلفة ، وهم اليهود ، ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴾[1] [الأحزاب : ٦٠-٦١] .

وليحدد المصطلح عرّف العلماء (الحرب النفسية) بأنها : حملة مخطّطة شاملة تستخدم الدعاية والشائعات ، وأساليب أخرى ، كإجراءات عملية ذات طبيعة سياسية أو عسكرية أو اقتصادية أو اجتماعية ، عن طريق وسائل الاتصال المختلفة ، للتأثير في مشاعر وعقول وآراء وسلوك جماعة أو جماعات معادية ، تأثيراً يتفق مع مصالح الطرف الذي يشنّ الحرب النفسية) .

(وتعتبر عملية السيطرة على الجبهة الداخلية وجعلها متماسكة متآلفة

---

(١) « المرجفون » : المشيعون للأخبار الكاذبة . « لنغرينك بهم » : لنسلطنك عليهم . « ثقفوا » : وُجدوا ، وأُدْرِكوا .

من أهم أساليب مقاومة الحرب النفسية ، لأن تماسك الجبهة الداخلية يعني حبّ الأفراد لبعضهم البعض ، ولمجتمعهم ولقادتهم ، كما يعني عدم تقبّلهم للدعاية أو الشائعات التي يوجهها العدو نحوهم ، وإذا ما كانت الجبهة الداخلية قوية ومتماسكة ، فإن الحرب النفسية المضادة لا تجد ثغرة تنفذ منها إلى أعماق المجتمع ، وإنما تجد الأبواب أمامها موصدة) .

أما عن مبادئ مقاومة الحرب النفسية ، حسب وجهة نظر الإسلام ، فتتلخص بما يلي :

١ـ تقوية روابط الأفراد ببعضهم البعض : أي تقوية روابط الجبهة الداخلية ، لذلك ركّزت الشريعة الإسلامية على أن يكون المسلمون كالجسد الواحد .

٢ـ ضبط وتحديد الحملات النفسية المعادية : وذلك بهدف دحضها ، والردّ عليها ، وكشف زيفها .

٣ـ إرهاق منطق العدو ، وتجريد حربه النفسية من عناصر القوة ، مع البعد عن مهاجمة السلوك الشخصي ، وذلك بهدف التحوّل من الدفاع إلى الهجوم .

٤ـ حماية المواطنين من الحملات النفسية المعادية ، وتحصينهم ضدها .

٥ـ عدم الاعتماد على أيّ مصدرٍ من مصادر العدوّ في استقاء الأخبار ، وذلك لأن العدو قد ينصب شراكاً خادعةً ليوقعنا فيها .

٦ـ حُسن تربية الأفراد أو الأتباع ، ليكونوا مؤمنين بما يدافعون عنه من مبادئ وعقائد ، وليكونوا مدافعين عن قادتهم ، ولا يكون ذلك إلا بالحبّ والطاعة .

وأما وسائل الحرب النفسية فكثيرة ومتعددة ، لكن أهمها :

ـ الاتصال الشخصي .

ـ الاتصال الجمعي : أي بين شخص وعدة أشخاص .

ـ الاتصال الجماهيري : أي مع عدة جماعات .

وأما رجل الحرب النفسية ، فلا بدّ أن تتوافر لديه مؤهلات معينة ، وذلك بهدف إنجاح عمله الخطير ، وأهم تلك المؤهلات ما يلي :

أ ـ أن تكون لديه معرفة كاملة بالوسائل التي سيستخدمها ، وما يتصل بها .

ب ـ أن يكون ذا فصاحة وإلمام بلغته وبأكثر من لغة أو لهجة .

جـ ـ أن يكون لديه إلمام بسياسة العلم الحكومي ، والعلم السياسي ، أي أن يُدرك العواقب السياسية لأي موضوع بالنسبة لجمهوره .

د ـ يجب أن يدرس رجل الحرب النفسية جمهوره ، وبناء على ذلك يستغل الحاجات النفسية للجمهور ، في حملته ، فيربط دعايته بالحاجة إلى الأمن ، والحاجة إلى الرفاهية .

هـ ـ أن يكون لدى رجال الحرب النفسية القدرة على الخَلْق والتجديد ، وذلك بالبعد عن الروتين .

و ـ أن يكون مؤمناً بما يقوم بالدعاية له ، لأنه لو لم يكن مؤمناً بقضيّته فإن دعايته أو حملته النفسية لن تكون ذات فائدة ولا تأثير .

ز ـ أن يستخدم رجل الحرب النفسية الصدق والأمانة ، وأن يبتعد عن الأراجيف والتلفيق ، لأن هذا يفقد الثقة في دعايته .

ح ـ أن يعمد رجل الحرب النفسية من آن لآخر إلى قياس ردود فعل الجماهير ، ليعدل من خططه لتكون مؤثرة في مستقبله .

وأما ما يتعلّق بأهم أساليب الحرب النفسية ، فيمكن حصرها بما يلي :

ـ الدعاية .

ـ إطلاق الشائعات .

ـ إثارة الرّعب : وذلك عن طريق افتعال الأزمات مثلاً .

ـ غسيل المخ ، وذلك عن طريق تحطيم الشخصية الفردية .

ـ المخابرات : حيث تقوم بدور إيجابي ، كالحصول على المعلومات قبل البدء في اتخاذ سلوك أو طريق معين ، أو وقائي ، كالتصدّي لمخابرات العدو الإيجابية[1] .

أجل لقد استخدم المشركون مع رسول الله ﷺ وصحابته بعض وسائل الحرب النفسية ، كالأسلوب الشخصي ، والندوات ، وإطلاق الإشاعات ضد الرسول ﷺ وضد القرآن ، إضافة إلى الأسلوب الجمعي المباشر ، مثال ذلك ما كان يفعله عمه أبو لهب مع الوفود إلى الحرم المكي .

ومن الأساليب التي اتخذها المشركون في حربهم النفسية ضد الدعوة :

أسلوب التكذيب والاتهام ، وأسلوب الضغط الاقتصادي حيث الحصار والتجويع والمقاطعة التامة ، وأسلوب التجسس والمخابرات ، وأسلوب الإحراج والتعنّت والتعجيز والجدال بالباطل ، ثم انتقلوا إلى أسلوب التعذيب الجسدي ، وما إلى هنالك ، ولكن هل آتى ذلك ثمراً؟!

---

(١) للتوسّع يراجع : الحرب النفسية ضد الإسلام ، د . عبد الوهاب كحيل ص : ١١٥ـ١٦٠ .

أبداً ، إنما اتخذ الرسول صلوات الله وسلامه عليه أساليب نفسية مضادة ، استطاع من خلالها دحض افتراءاتهم ، وسحق مؤامراتهم وخططهم ، ومصداق ذلك قول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢] .

وقوله سبحانه : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف : ٨] .

حيث انطلق الرسول صلوات الله عليه لاستخدام الأسلوب الناجح ، وهو أسلوب الاتصال الشخصي ، فراح يعرض نفسه على الوفود والجماعات ، وهو موقنٌ بأن كلمات الحق التي أنزلها الله سبحانه عليه ستجد طريقها الممهّد إلى قلوب الناس ، حيث إن الناس قد فُطروا على الفطرة السليمة .

إضافةً إلى ذلك فقد عمد إلى الأسلوب الآخر ، وهو الاتصال الجمعي ، حيث الخطابة والمؤتمرات والندوات ، وأماكن تجمّع الناس .

وواجه الرسول صلوات الله وسلامه عليه الحرب النفسية بربط المجتمع الداخلي للمسلمين وسدّ الثغرات التي يمكن أن ينفذ منها حَمَلَة لواء الحرب النفسية المعادية ، حيث أسس في نفوسهم وعقولهم وأرواحهم العقيدة السليمة القوية ، والتي لا تلين ولا تتزعزع ، مهما واجهتها المصائب والشدائد والمحن .

إلى درجة أنهم أصبحوا كالجسم الواحد ، أخوة في الله متحابّين ، لا فرق بين الفقير منهم والغني ، ولا بين العبد والسيّد .

بل لقد عاتبه الله سبحانه من أجل أنه أعرض عن (عبد الله ابن أم

مكتوم) الأعمى ، وقد كان منشغلاً بمحاورة بعض صناديد مكة ، قال سبحانه مخاطباً الرسول ﷺ : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾[1] [عبس : ١-١٠] .

والتاريخ يحدثنا عن تلك الفترة أحاديث فيها العجب العُجاب ، فالروابط المعنوية المتينة ، كالأخوة ، والتكافل ، والتعاون ، والإيثار ، هي التي سادت المجتمع المسلم كله .

كل ذلك كان في مكة ، لكن حين انتقال المسلمين إلى المدينة المنورة ، حسّن الرسول ﷺ العلاقات مع اليهود والنصارى ، وراح يبعث إلى الملوك والأمراء الرسل ليطلعهم على ما جاء به من تعاليم سماوية ، والجميل في ذلك أن القرآن الكريم رصد لنا تحرّكات المشركين ضد الدعوة الإسلامية ، وسجّلها لتكون دليلاً لمن يأتي من بعد ، مثال ذلك قوله تعالى في معرض الردّ على مسألة تكذيب الكفار للرسول ﷺ :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٤٣ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ۝٤٤ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٥ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[2] [سبأ: ٤٣-٤٦].

---

(١) « عبس » : قطّب وجهه الشريف ﷺ . « وتولى » : أعرض . « لعله يزكى » : يتطهر بتعليمك من دنس الجهل . « يذّكر » : يتعظ . « له تصدى » : تتعرض له بالإقبال عليه . « جاءك يسعى » : وصل إليك مسرعاً ليتعلم . « عنه تلهى » : تتلهى وتتشاغل وتُعْرِض .

(٢) « إفك مفتري » كذب مختلف . « معشار ما آتيناهم » : عُشْر ما أعطيناهم من النعم . =

وهكذا نلاحظ أن كل الأساليب التي دافع القرآن فيها عن الرسول ﷺ تتلخص في تبيين الحقائق ، وتعليمه أسلوب الدعوة بالحسنى والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن .

أضف إلى ذلك أمراً آخر هو أمر الله تعالى للداعية الرسول ﷺ بالتحلّي بالصبر ، واتخاذ سير الأنبياء والمرسلين أسوة وقدوة له ، فهم قد أوذوا وعذّبوا وقُتل الكثيرون منهم ، وصبروا إلى درجة عجيبة .

وعلى المنوال نفسه سار الصحابة الأكارم ، فقد تعرّضوا لأبشع أنواع العذاب فصبروا ، وتعرّضوا للأذى فتحملوا ، وأُطلقت ضدّهم الإشاعات فصبروا ، حتى إن بعضهم ـ كالسيدة سمية رضي الله عنها ـ سقطت تحت سياط التعذيب شهيدة صابرة ، لكن ذلك لم يُضعف من عزائمهم ، بل على العكس تماماً ، لقد أصبحوا أكثر صلابة وقوة ، إلى درجة أن الواحد منهم كان يتمنى الشهادة في سبيل الله تعالى ، ويتنازل عن غالبية ممتلكاته إرضاءً لله ولرسوله ﷺ ، ووقف الصحابة الكرام في كل الغزوات يدافعون عن الإسلام لا يخافون في الله لومة لائم .

وبذلك استحقوا ثناء الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[1] [النحل : ٤١ـ٤٢] .

وسجّل التاريخ الفرق الكبير ، بين ما كان عليه الباطل وأعوانه ، وما كان عليه الإسلام وأتباعه : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

* * *

= « كان نكير » : إنكاري عليهم بالتدمير . « من جنة » : من جنون .

(١) « لنبوأنهم » : لننزلنَّهم . « حسنة » : مَبَاءة ، أو داراً ، أو عطيّة حسنة .